الفصل الرابع

سيرة الرسول
في تصوّرات الغربيّين
(٢)

● **تمهيد :**

لسنا هنا فى حاجة الى اعادة ما سبق أن ذكرناه فى تقديم الحلقة الأولى عن أهمية هذا البحث ومبررات ترجمته رغم ما قد يكون فيه من أوصاف تسىء الى نبينا صلى الله عليه وسلم . ولهذا نرجو من القارىء الكريم أن يرجع فى ذلك الى ما ذكرناه فى هذا الصدد فى موضعه من الحلقة الأولى .

ولكننا نود هنا أن نضيف الى ذلك حقيقة هامة تتمثل فى أننا اذا أردنا أن نعرف سر موقف الأوروبيين اليوم من الاسلام ونبيه فان علينا أن نبحث عن ذلك ، ليس فى الظواهر السطحية التى نراها اليوم هنا أو هناك ضد أو مع الاسلام ونبيه ، بل فيما رسخته القرون السابقة من مواقف تجاه الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ، والتى لا تزال فى عماق الأوروبيين تظهر فى المناسبات بوعى أو بغير وعى . ومن هنا تأتى أهمية التعرف على هذه المواقف السابقة .

ولعلى أنتهز هذه المناسبة لأوجه نداء الى المؤسسات العلمية الاسلامية لتخصيص جزء من جهودها لدراسة التراث الغربى المتعلق بالاسلام وربما كان من الأوفق أن تتجه بعض هذه المؤسسات الى انشاء مركز علمى خاص لدراسة التراث الغربى المشتغل بالاسلام . وهو تراث غزير فى كمه . ويكفى أن نشير هنا الى أن ما ألفه المستشرقون عن الشرق فى قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) قد بلغ ستين ألف كتاب(١) .

---

(١) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٣٩ ترجمة كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ١٩٨١ .

OBEIKANDI.COM

ومواقف الغرب الأساسية تجاه الاسلام لم تتغير كثيرا فى عصرنا الحاضر رغم بعض الظواهر الايجابية فى بعض الأحيان . ففى الوقت الذى نرى فيه سكرتارية الفاتيكان لغير المسيحيين تصدر كتابا تدعو فيه الى الحوار بين المسيحية والاسلام على أسس متحررة من الأوهام والأحكام السابقة ضد الاسلام والتى هى من موروثات العصور الوسطى(٢) نجد مؤلفات تصدر فى الغرب بين الحين والآخرفى أيامنا هذه تحذر من خطر الاسلام على مستقبل الغرب والحضارة الغربية(٣) ، ونجد بعض الكتاب الغربيين - مستشرقين وغير مستشرقين - لا يزالون حتى اليوم أسرى التصورات القديمة التى خلفتها العصور الوسطى عن الاسلام ونبيه ، ناهيك عما تفعله وسائل الاعلام فى الغرب بالاسلام ومقدساته .

وفى هذا الجزء من البحث(٤) يلاحظ القارىء الكريم أن بفانموللر يعود للحديث مرة أخرى عن بعض المؤلفات التى سبق أن تناولها فى الحلقة الأولى . ولكن الحديث هنا يختلف ، اذ أنه هنا يفصل ما سبق أن أجمله وذكره هناك فى عبارات قصيرة ، ويلقى أضواء على جوانب لم يشر اليها من قبل . ومن هنا يمكن أن نعد الحلقة السابقة - الى حد ما - بمثابة تمهيد لهذه الحلقة . فهنا تعرض وجهات النظر مفصلة ومدعمة فى أغلب الأحيان باقتباسات من المؤلفات المعنية . وقبل أن نعرض الترجمة الكاملة للفصول التى اخترناها من كتاب بفانموللر نود أن نقدم لها بنظرة اجمالية تشير فقط الى أهم النقاط فى خطوط عريضة :

---

(٢) صدر هذا الكتاب فى روما عام ١٩٦٩ وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٧١ بعنوان :

(Guidelines for a Dialogue between Muslims and Christians)

ويشتمل هذا الكتاب على كثير من الجوانب الايجابية .

(٣) انظر على سبيل المثال الكتاب الذى ألفه (John Laffin) بعنوان : خطر الاسلام (Danger of Islam) (١٩٧٩) وتمت ترجمته أيضا الى الألمانية عام ١٩٨٠ . وانظر أيضا ما تضمنه فى هذا الصدد الكتاب الذى يحمل عنوان « 1985 » من تأليف (Anthony Burgess) والذى صدر فى لندن عام ١٩٧٨ وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

(٤) يراجع فى ذلك كتاب بفانموللر « موجز فى أدب علوم الاسلام » من ص ١٦٨ الى ص ١٩٦ .

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالكتابة عن حياة محمد اعتبارا من القرن السابع عشر بعد أن كانت الكتابات السابقة فى هذا المجال كتابات جدلية كنسية تعبر عن اتجاه الكنيسة المعادى بطبيعة الحال للاسلام ولكن هدف المستشرقين الواضح والمعلن حينذاك لم يكن أيضا هدفا علميا ، بل كان محاربة الاسلام والدفاع عن المسيحية . ومن أجل هذا الغرض وجد المستشرقون أن أفضل وسيلة لمحاربة محمد تتمثل فى معرفته . ومن هنا كان لا بد من الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه . وقد اشتملت المؤلفات فى ذلك الوقت على أكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم والشتائم وقاحة ، وذلك جنبا الى جنب مع ذكر وقائع وحقائق تاريخية وكذلك ترجمات من القرآن الكريم .

ولعل « بولانفلييه » كان أول من تجرأ فى وسط هذا الجو القاتم ـ على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بأوصاف ايجابية ، اذ قال عنه انه أداة الله التى قضى بها على العبادة الباطلة وأحل محلها العبادة الحقة .

أما عصر التنوير فى أوروبا فقد مجد محمدا ﷺ بصفة عامة . ففى عصر التنوير الفرنسى احتل محمد عليه الصلاة والسلام مكان الصدارة فى اهتمامات المثقفين وكان موضوع أحاديث الصالونات فى ذلك العصر ، لأن فولتير قد وصفه بأنه رجل عظيم جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يقوم بها انسان على ظهر الأرض . أما التنوير الألمانى فقد كان يرى فى محمد ﷺ داعية الى الدين الطبيعى .

وقد قال كارلايل بحق : « ان الأكاذيب التى عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول محمد لا تسب أحدا غيرنا » .

وفى القرن التاسع عشر بدأ عصر المؤلفات الاستشراقية التى توصف بأنها مؤلفات تاريخية نقدية فى السيرة . وكان جوستاف فايل أول من قام بمحاولة فى هذا الصدد واعتمد على مصادر عربية وراح يبحثها بحثا نقديا ، وقام بجمع كل المؤلفات الأوروبية حول السيرة . ولكن النزعات أو الميول الأساسية الأوروبية ازاء محمد ظلت قائمة تتخللها مختلف الظلال والألوان .

وبجانب اشبرنجر مثلا ـ الذى كان ينتهز كل مناسبة لتصوير

اخلاق محمد ﷺ تصويرا سيئا ما وجد الى ذلك سبيلا ـ كان هنـاك مستشرقون آخرون معتدلون نسبيا مثل نولدكه الذى كان يسعى الى « موضوعية هادئة » . ويقول نولدكه :

« ان محمدا كان على اقتناع بمهمته لانقاذ اخوانه فى الانسانية من العذاب الأبدى بهدايتهم الى العقيدة الصحيحة ولكى يجعلهم مشاركين فى السعادة السماوية » .

أما كريل فانه يقول : « يجب أن يعترف المرء بأن محمدا كان رغم كل اخطائه ـ مؤسس المدنية العربية وأنه قد وضع شعبه على درجـة عليا من الدين » .

أما موقف بفانموللر نفسه ـ صاحب البحث الذى نقوم هنا بترجمته ـ ازاء جهود زملائه التى تضرب فى معظمها فى متاهات واسعة فيبدو انـه يميل الى أن يترك أمر هذه القضايا مفتوحا عندما يقول ان أصول نشـأة الاسلام تبدو لنا اليوم بعد بحوث شاقة لا نهاية لها أكثر غموضا من أى وقت مضى .

ويتضح لنا من دراسة الكثير من المؤلفات المذكورة فى هذا البحـث أن كثيرا من المؤلفين قد وضعوا لأنفسهم تصورا خاصا عن محمد صلى الله عليه وسلم يتمثل فى زعمهم بأنه ليس بنبى حقيقى ثم راحوا يحاولون اثبات تصورهم هذا بشتى الوسائل ، كما افرغوا مفهومهم للدين على كل ما وجدوه فى الاسلام ليبينوا أن الاسلام ليس دينا سماويا .

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه هنا هو ان المستشرقين الذين يكتبون عن الاسلام ونبيه لا يمثلون دائما خطا واحدا فى جميع المسائل ، فهنـاك أمور يختلفون عليها ويبلغ النقاش فيها حدا بعيدا سواء من جانب المؤيدين أو من جانب المعارضين . ومن أمثلة ذلك ما ادعاه « جريمه » من أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن الا مصلحا اشتراكيا وما كان من تفنيـد « سنوك هورجرونيه » لآراء « جريمه » فى هذا الصدد .

وفى ختام هذا التمهيد نود أن نشير أيضا الى أن الكتاب الذى نترجم منه هذه الفصول لا يشتمل على أية هوامش .

ومن أجل المصلحة العلمية قمنا بوضع هوامش مختلفة نعرف فيهـا بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض

OBEIKAN.COM

المزاعم أو المفتريات على الاسلام ونبيه ﷺ ، ونوضح فيها أيضا بعض المفاهيم الواردة فى ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا ·

ومن ناحية أخرى فان المؤلف قد قسم الموضوع هنا الى تقسيمات عامة على النحو التالى :

التراجم الحديثة لسيرة محمد :

(ا) من بوديه الى سيل ·

(ب) التنوير الفرنسى ·

(جـ) من التنوير الألمانى حتى ظهور أول كتاب تاريخى نقدى عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل ·

(د) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد فى القرنين التاسع عشر والعشرين ·

(هـ) كتابات شعبية عن حياة محمد ·

وقد قمنا بتقسيم كل فصل من هذه الفصول الى فقرات ووضعنا لها عناوين جانبيه تحمل فى الغالب اسم المؤلف الذى تتناوله كل فقرة على حدة· ولعلنا نكون فى ذلك كله قد وفقنا الى الصواب ·

* * *

ترجمة وتعليقات : التراجم الحديثة لسيرة محمد

أولا ـ من بوديه الى سيل

١ ـ ميشيل بوديه (Michael Baudier) :

يرجع الفضل الى ميشيل بوديه(٥) فى أنه أول من قام بوضع وصف شامل لحياة محمد بدلا من الكتابات الجدلية الكنسية · وقد كان بوديه بالنسبة لعصره ـ على أى حال ـ مؤرخا معتبرا ، كما كان كاتبا شعبيا · ويدين له الجمهور الفرنسى بالفضل لكتابه الذى استطاع أن يعرفه فيه بالاسلام · ويباهى بوديه بحق بأنه أول من جمع هذه المادة (المتعلقة

---

(٥) صدر كتاب بوديه بالفرنسية فى باريس عام ١٦٢٥ و ١٦٣٢ ثم بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان فى عام ١٧٤١ تحت العنوان التالى : (Histoire de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur faux prophéte Mahomet) .

بحياة محمد) فى صورة تاريخ كامل . ولذلك كان لكتابه أيضا تأثير يفوق الوصف على التصورات (الغربية) عن الاسلام وعن محمد .

ولم يكن هذا العمل ـ على وجه اليقين ـ عملا محايدا . فقد كانت غاية بوديه هى « الكشف عن أباطيل نبى الأتراك وفحشه وخدائع محمد وزيف طائفته والكشف عن تعاليمه المضحكة والوحشية »(٦) .

وقد كان بوديه كاثوليكيا متدينا ، يستقى معلوماته من مصادر كنسية فقط ، وكان ينقل عنها دون نقد . وبفضل كتاباته لم ير القرن السابع عشر فى محمد الا دجالا أو مضللا ، ولم تكن لدى هذا القرن الا الرغبة فى دفن محمد تحت أكوام من النقض والتفنيد .

ولكن هذا الحماس الدينى كان له أيضا جانب طيب . فلكى يستطيع المرء أن ينقض محمدا بطريقة أفضل كان لا بد للمرء ان يعرفه ، وقد كان من اللازم أن يطلع المرء على القرآن وأن يفهمه . وقد روى بوديه حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة ، والحق أنه قد جعل هناك مكانا فى كتابه لأكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم وقاحة . أجل ، لقد أغرم بوديه بوصف أعمال السلب والنهب والقسوة والفجور من جانب النبى وصفا يصل الى حد التفاصيل الجزئية(٧) .

ولكن بوديه ، فى العصر نفسه الذى تابع فيه روح موروثات العصر الوسيط ، قام بتقديم وقائع تاريخية ومعلومات تشتمل على درجة قصوى

---

(٦) لا شك أن مثل هذه الكتابات التى تعلن عن مقصدها صراحة مثل كتاب بوديه تعد أقل خطرا من تلك المؤلفات الأخرى التى لا تكشف صراحة عن مقصدها ، بل تحاول بشتى أساليب التمويه والتزويق العلمى أن تتنع القارىء بما تريد ، ولسنا هنا فى حاجة الى الكشف عن أباطيل بوديه . فالقارىء العادى لا يخفى عليه زيف مزاعمه . فعمله أبعد ما يكون عن الاقتراب من البحوث العلمية النزيهة التى تسعى لمعرفة الحقيقة بتجرد وموضوعية . وقد اعترف بفانموللر بأن عمل بوديه لم يكن على وجه اليقين عملا محايدا ، فهو عمل يدخل فى باب الجدل الكنسى السقيم .

(٧) كيف يقال ان بوديه قد روى حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة وهو فى الوقت نفسه قد أفسح فى كتابه مكانا لأكثر المزاعم وقاحة وأكثر الأساطير مدعاة للسخرية ؟ هذان أمران لا يجتمعان ، فاما دقة وموضوعية واما مزاعم وقحة وأساطير مضحكة . أما هذا الخلط الغريب فانه بعد استهانة بعقلية القارىء .

من الدقة والثراء ـ أجل ، ان الأمر الأهم من ذلك هو انه قام بوصف تعاليم جوهرية للديانة المحمدية بعبارات واضحة ، وابرز كيف تتم مراعاة الزكاة والاحسان فى بلاد العرب مراعاة كبيرة . وعلى الجملة فانه قد جعل الجمهور يتعرف بطريقة مفهومة تماما على قطب الرحى الذى يدور عليه دين الأتراك كله .

ويستطيع المرء أن يطلق على نصف الكتاب أنه ترجمة فرنسية للقرآن . وبعد أن تحدث بودييه عن محمد وعن أعماله وعما يسميه بالتدرج الدينى فى الرتب (Hierarchie) لدى المسلمين ، يسعى بودييه الى توسيع نطاق عمله التفنيدى كله فى خطوط ثابتة لكى يواجه سم الأتراك بسم مضاد . وتحت العنوان العام « الحاديات محمد » يصف باسهاب المواضع القرآنية التى أفسد فيها النبى الزائف الديانة المسيحية. ولكن لكى يجعل بودييه الخديعة أو التضليل واضحا بقدر الامكان أمام الجمهور فانه يقتبس آيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس . وعلى هذا النحو يتعرف القارىء على الأسس الرئيسية لتعاليم محمد عبر كل صفحات الكتاب .

* * *

٢ـ ادوارد بوكوك (E. Pococke) :

وفى حين كان بودييه ينقل بأمانة عن المصادر الكنسية القديمة فقط ، فقد قام المستشرق الشهير ادوارد بوكوك(٨) (١٦٠٤ ـ ١٦٩١) ـ الذى

---

(٨) ادوارد بوكوك (١٦٠٤ ـ ١٦٩١) درس اللاهوت فى أكسفورد وتعلم العربية فى حلب ،وأصبح أستاذا للعربية والعبرية فى اكسفورد عام ١٦٣٦ . وكتابه الذى يتحدث عنه بفانموللر هنا هو « لمع من تاريخ العرب » (١٦٥٠) : (Specimen Historiae Arabum)وقد اعتمد فيه على كتاب بالعربية لابن العبرى . وفى عام ١٦٦٣ أخرج نشرة كاملة بالعربية لكتاب « مختصر تاريخ الدول » لابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج ١٢٢٦ ـ ١٢٨٩) الذى كان رئيس اليعاقبة فيما كان يعرف قديما بالمملكة الفارسية . وقد كتب ابن العبرى هذا الكتاب بالعربية ، وهو يشكل الجزء الأول من كتاب له فى التاريخ العام بالسريانية فى ثلاثة مجلدات . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية) مادة : ابن العبرى . وراجع ايضا :
(J. Fueck : Die Arabischen Studien in Europa'p. 88f. Leipzig 1955) .

استطاع أن يحوز على معرفة واسعة باللغة العربية أثناء اقامته الطويلة فى الشرق ـ قام بنشر مصدر عربى عن حياة محمد ، لكنه مصدر مكتوب فى تاريخ حديث ، ومن أجل ذلك فان قيمته ضئيلة من وجهة النظر التاريخية (ص ١٣٢)(٩) ٠

ولكن أهمية هذا الكتاب تتمثل فى أن المرء قد أصبح أخيرا على وعى بأنه يتحتم الرجوع الى مصادر عربية أساسية لكى يمكن الوصول الى نظرة أكثر موضوعية الى محمد وتعاليمه ٠ وقد اشتمل عمل بوكوك على هوامش مسهبة واستطرادات تشهد بعلمه الغزير ٠ وقد تم فى العصر التالى استغلال هذا الكتاب الى أقصى حد من جانب كل هؤلاء الذين كتبوا عن محمد وعن التاريخ العربى ٠

* * *

٣ ـ هوتنجر (Hottinger) :

فى كتابه تاريخ الشرق « Historia Orientalis » حاول يوهان هينريش هوتنجر (١٠) (١٦٢٠ ـ ١٦٦٧) الذى تخرج بوصفه مستشرقا فى كل من جروننجن وليدن ثم اصبح أستاذا لتاريخ الكنيسة واللغات الشرقية فى زيوريخ ـ حاول تصوير الحياة والطبيعة الشرقية المتعددة الجوانب بقدر الامكان ٠ وقد قدم فيه تاريخا مفصلا نسبيا للعرب ، وقدم فيه بوجه خاص أيضا تاريخ محمد وما يتصل به ٠ وذلك كله فى شكل أكثر غزارة وثراء مما كان قائما حتى ذلك الحين ٠

---

(٩) يحيل بفانموللر هنا الى ص ١٣٢ حيث يشير هناك الى أن أول المصادر العربية التى رجع اليها الكتاب الغربيون فى الكتابة عن محمد صلى الله عليه وسلم كان كتاب ابن العبرى المشار اليه وكتاب أبى الفداء الذى نشره جانييه (سيأتى الحديث عنه فى هذا البحث أيضا) ، وأشار بفانموللر الى أن المصادر العربية الأقدم عهدا من هذين الكتابين لم تكن معروفة حتى ذلك الحين للعلماء الأوروبيين ٠

(١٠) هوتنجر : مستشرق سويسرى ، كان أستاذا للغات السامية فى كل من زيوريخ وهايدلبرج ٠ وقد صدر كتابه المشار اليه فى زيوريخ عام ١٦٥١ وأعيد نشره عام ١٦٦٠ ٠ ومن أعماله أيضا : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والآثار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية ٠

OBEIKAN.COM

وقد كان كتاب هوتنجر ـ الذى اعتمد فيه كثيرا على كتاب بوكوك المشار اليه (Specimen) يشكل بجانب كتاب بوكوك من الآن فصاعدا ولفترة طويلة الينبوع لتاريخ العرب . ولكن هوتنجر يرى فى مقدمة كتابه أن من الضرورى أنه يجب عليه أن يعتذر لقيامه بتقديم عرض لحياة محمد وتعاليمه . ولكى يبرر عمله هذا يستشهد بعلماء من أمثال (بوللينجر Bullinger) و (ميكونيوس Myconius) و (ببليياندر Bibliander) ، وكذلك يستشهد بالشخصيات المعاصرة الشهيرة من أمثال (لامبرور L'Empereur) الأستاذ بجامعة ليدن .

وبالاضافة الى تشجيع (تقدم) التفسير والدفاع(١١) والتاريخ العام فقد كان هوتنجر يستهدف الوصول الى غايتين :

فقد حدث أن اتهم الروم الكاثوليك دعاة الاصلاح (الدينى) بالسير فى خفاء وراء المذهب المحمدى . وقد رد هوتنجر هذا الاتهام وأثبت فى فصل خاص ـ على سبيل المثال ـ أن حجج (بيلارمين Bellarmin) (١٢) فى الدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية مستقاة من علم العقيدة الاسلامى .

وبجانب ذلك يريد هوتنجر ـ كما سبق أن فعل (ببلياندر Bibliander) فى عصر لوثر ـ أن يسهم فى محاربة خيانة المحمديين وغدرهم ومحاربة السيادة التركية . ويعتقد هوتنجر أن تفنيد الديانة التركية يعد أيضا بمثابة توجيه ضربة للسيادة التركية .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان يسود لدى هوتنجر السعى نحو انصاف الاسلام وانصاف مؤسسه بقدر الامكان .

* * *

٤ ـ ألكسندر روس (A. Ross) :

وبعد ظهور كتاب هوتنجر « تاريخ الشرق » بعامين ظهر فى انجلترا فى عام ١٦٥٣ أول كتاب فى تاريخ الأديان العام من تأليف ألكسندر روس

---

(١١) المقصود هنا تفسير الديانة المسيحية والدفاع عنها .

(١٢) روبرت بيلارمين (١٥٤٢ ـ ١٦٢١) كاردينال يسوعى ، كان فى طليعة المهاجمين للاصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

تحت عنوان التقديس الشامل أو (Pansebeia) ، وقد ترجم ايضا الى الألمانية بعد ذلك بخمسه عشر عاما(١٣) .

ولم يبد روس فى هذا الكتاب الجامع الا قليلا من التعاطف مع اشكال المعتقدات الأجنبية ، ولم يبق لديه من هذا التعاطف بالنسبة للاسلام بوجه خاص الا أقل القليل . صحيح أنه يبرهن فى فصل خاص على أن محمدا لم يكن العدو الكبير للمسيح الذى تحدث عنه كل من بولس فى الاصحاح الثانى من رسالته الثانية الى أهل تسالونيكى وكذلك يوحنا فى سفر الرؤيا . ولكن روس رغم ذلك لا يريد أن ينكر « أن محمدا كان عدوا للمسيح لاتيانه بتعاليم قام بترويجها تعارض الوهية المسيح » .

* * *

٥ ـ ماراتشى (Marracci) :

وقد قدم ماراتشى فى كتابه « الرائد فى تفنيد القرآن » نظرة على حياة وأعمال محمد مؤلف القرآن .

وقد حاول جاهدا ـ كما فعل بوكوك وهوتنجر ـ أن يرجع الى مصادر عربية . ويعبر ماراتشى هنا عن الغاية من وصفه لحياة محمد على النحو التالى :

« اذا أردت أن أصور حياة محمد حسبما كتب فى ذلك مؤلفونا وكتابنا فسأجعل نفسى مدعاة للسخرية لدى المحمديين . فالفرق كبير جدا بين ما يروونه وما نرويه نحن لدرجة أن المرء لا يمكنه أن يصدق أن كلا الجانبين يتناول بالحديث رجلا واحدا . ومن أجل ذلك فاننى أريد أن أتابع أولئك ، ليس لأنى آخذ كل شىء على أنه حق ، بل لأننا اذا تناولنا عدو الدين بالنقض والتفنيد فان محاربته بأسلحته هو أفضل من محاربته بأسلحتنا ، وحينئذ يسهل التغلب عليه .

وبالاضافة الى ذلك فان كثيرا من كتابنا يروون عن محمد أشياء تثير الضحك لدى المحمديين ، ولا تجدى الا فى زيادة تقويتهم فى خرافاتهم . وعلى ذلك فانى سأعتمد فى الحديث عن حياة محمد على أكثر المؤلفين العرب قدرا . واذا كنت على علم أيضا بأن هؤلاء يأتون بالكثير من الأكاذيب لاعلاء شأن نبيهم الزائف فاننى لن أجعلهم يعتبروننى كاذبا » .

---

(١٣) نشرت الترجمة الألمانية فى هايدلبرج بالمانيا عام ١٦٦٨ تحت عنوان : « العبادات المتباينة فى العالم كله » .

وعلى الرغم من أن ماراتشى ـ بناء على احاطته بالمصادر العربية قد استطاع أن يثبت أخطاء كثيرة لأسلافه فى محاربة محمد فان محمدا قد ظل لديه هو النبى الزائف والمضلل والغاصب ومؤسس طائفة تثير الاشمئزاز ومؤلف كتاب مملوء بالتناقضات والخرافات الكاذبة والأباطيل(١٤) .

* * *

٦ ـ بريدو (H. Prideaux) :

واذا كان ماراتشى قد كتب ما كتب بوصفه مجادلا كاثوليكيا واضحا ، له عرض أساسى يتمثل فى الدفاع عن المسيحية فى مقابل الديانة المحمدية ، فان العالم «دين همفرى بريدو» قد أراد بوصفه لحياة محمد أن يقدم للمؤلهين الطبيعيين (Deisten) فى عصره مرآة يرون فيها أنفسهم . ويصور محمدا ليس بوصفه اكبر الدجالين فحسب ، بل بوصفه أيضا أحد المجرمين(١٥) . وحياة محمد ينبغى أن تكون بمثابة انعكاس لصورة

(١٤) لقد كان ماراتشى أحد رجال اللاهوت الايطاليين . أمضى حياته كلها فى اعداد دراسات هدفها البرهنة ـ كما يزعم ـ على بطلان الاسلام وحقيقة الديانة المسيحية . وقد صدر كتابه فى « تفنيد القرآن » عام ١٦٩١ وقدم فيه أيضا لمحة عن حياة محمد ، ثم نشر النص العربى الكامل للقرآن عام ١٦٩٨ مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش كثيرة ومحاولة فاشلة لنقض القرآن فقرة فقرة . وينطلق ماراتشى فى دراساته ـ مثلما يفعل غيره من اللاهوتيين ومعظم المستشرقين ـ من فرضية يضعونها كأنها حجة مسلمة ويبنون عليها كل مزاعمهم . وتتمثل هذه الفرضية فى أن محمدا ليس نبيا حقيقيا وأنه هو الذى قام بتأليف القرآن . وقد سبق أن فعل الشىء نفسه مشركو مكة . وقد وصف « بفانموللر » نفسه موقف ماراتشى (ص ١١٦) بأنه « نفور داخلى ازاء محمد وتعاليمه » فكيف ينتظر منه ـ وقلبه ملىء هكذا بالحقد على الاسلام ـ أن يكون منصفا للاسلام ونبيه ؟ وأين ذلك من تعاليم القرآن ـ التى لا بد أنه قد اطلع عليها ـ والتى تتمثل فى الانصاف المطلق الذى يعلو فوق كل اعتبار : « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** » ـ (المائدة : ٨) .

(١٥) همفرى بريدو (١٦٤٨ ـ ١٧٢٤) مستشرق انجليزى ، له دراسات عن ابن ميمون وعن العهدين القديم والجديد وصلتهما بتاريخ اليهود . وكتابه عن « حياة محمد » صدر فى لندن عام ١٦٩٧ وصدر بالفرنسية فى =

مزعجة للكفار والملحدين والمؤلهين الطبيعيين والاباحيين . وقد أراد بريدو أن يكون كتابه مجرد جزء من تاريخ الكنيسة فى الشرق وأن يثبت فيه أن النبى كان بمثابة سوط الله لمعاقبة الكنائس الشرقية وحملها على التوبة النصوح .

* * *

٧ ـ بولانفلييه (Boulainvilliers) :

وفى حين كان كل من ماراتشى وبريدو يرى فى محمد أكبر المضلين فقد ذهب الكونت بولانفلييه الى أقصى الطرف الآخر . وهنا يظهر لا بوصفه مؤرخا ، بل يظهر كمادح وكاتب روائى . وقد كان غرضه الواضح هو ـ أن يرفع من شأن الاسلام على حساب المسيحية ـ ومن أجل هذه الغاية عرض محمدا بوصفه انسانا وأداة من خلالها ارتفعت العبادة الباطلة وحلت محلها العبادة الحقة . وقد مدح محمدا بأنه كان حكيما قام بتمدين شعبه وبأنه كان أداة من أدوات الله وبأنه أتى بدين عقلى(١٦) .

* * *

٨ ـ جانييه (J. Gagnier) :

وقد حاول جان جانييه ـ أستاذ اللغات الشرقية فى أكسفورد وخليفة بوكوك ـ أن يتجنب هذين الجانبين المتطرفين ، وذلك بوصفه لمحمد كما تظهره المصادر العربية . وفى عام ١٧٢٣ نشر حياة محمد لأبى الفداء (١٧) . (١٢٧٣ ـ ١٣٣١ ، انظر ص ١٢٨) بالعربية

= استوكهولم عام ١٦٩٨ . ويصف نجيب العقيقى هذا الكتاب بأنه « ترجمة تافهة لا غناء فيها » . ويصف بفانموللر (ص ١١٦) موقف بريدو من محمد صلى الله عليه وسلم بنفس الوصف الذى وصف به موقف ماراتشى « النفور الداخلى ازاء محمد وتعاليمه » . وفى موضع آخر يصف موقفهما بأنه « حماس حقود » (ص ١١٧) .

ومن هنا ينطبق على (بريدو) ما ورد فى الهامش السابق .

(١٦) انظر ما ذكرناه عن بولانفلييه فى العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ص ٨٣ هامش رقم ١ .

(١٧) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبى ، ولد عام ٦٧٢ هـ فى دمشق ، تولى امارة حماة وكان له نشاط علمى ملحوظ . وأهم مؤلفاته =

واللاتينية مع مقدمة وهوامش تدل على سعة علمه . ولكن جانييه قام - بناء على طلب العديد من الشخصيات المعروفة التى أرادت أن تتعرف على محمد بالتفصيل ولم تكن تستطيع القراءة بالعربية أو اللاتينية - قام بتأليف كتاب عن محمد بالفرنسية .

وقد خصص جانييه مقدمة هذا الكتاب بصفة رئيسية لتفنيد آراء بولانفلييه (١٨) . أما الكتاب نفسه فانه يعتمد اعتمادا دقيقا على المؤلفين العرب ويجعلهم يتحدثون بأنفسهم . أجل ، لقد احتفظ جانييه بخشوع نبرة حديثهم ، ولم يمدح أو يلوم على الاطلاق ، ولم يضف شيئا من عنده . فهو لا يريد أن يصف محمدا كما كان ، بل يريد فقط أن يجعل الأوروبيين يتعرفون على ما يرويه ويعتقده المسلمون الأصوليون !

ولكنه قد سار فى هذا العمل بكثير من المهارة والذوق لدرجة أن كتابه قد اعتبره جميع العارفين منذ ذلك الوقت أفضل ما كتب عن سيرة محمد ، وقد اغترف منه كثيرا أو قليلا كل المؤرخين المتأخرين ممن كتبوا عن حياة محمد(١٩) .

* * *

= كتابه « مختصر تاريخ البشر » الذى اهتم به جانييه وغيره من المستشرقين . وفى هذا الكتاب قسم عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وله أيضا كتاب « تقويم البلدان » فى الجغرافيا . وقد وصف جورج سارتون أبا الفداء بأنه كان « أعظم جغرافى فى عصره » . وفى ص ١٢٨ التى يحيل اليها بفانموللر يذكر عددا من المؤلفات الأوروبية التى اهتمت بكتاب أبى الفداء فى التاريخ .

(١٨) عندما نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه رسول العناية الالهية . وقد اشترك جانييه فى الحملة ضد بولانفلييه كما هو واضح .

(١٩) ربما يعطى ما ورد هنا عن جانييه انطباعا بأنه كان منصفا حقا لمحمد صلى الله عليه وسلم . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . فقد اعترف بفانموللر فى موضع آخر (ص ١١٧) بأن جانييه قد وصف محمدا فى مقدمة كتابه بأنه أكثر الناس شرا وبأنه عدو لدود لله ، ثم أضاف بفانموللر الى ذلك قوله : من هذا يتبين لنا ماذا يفهم المرء من « حياده » . راجع تعليقنا على موقف جانييه فى العدد الأول ص ٨٤ هامش ١ .

٩ ـ جورج سيل (G. Sale) :

وبعد مرور عامين على ظهور كتاب حياة محمد لجانييه ظهرت فى عام ١٧٣٤ الترجمة الشهيرة للقرآن التى قام بها جورج سيل (انظر ص ٢١٦) (٢٠) وفى « المقدمة التمهيدية » التى تدل على سعة الاطلاع حاول سيل أن يكون منصفا لمحمد . فلم يكن محمد أبدا ـ فى رأيه ـ واحدا من أمثال جبابرة الملحدين كما يتصوره المسيحيون عادة . والضرر الذى ألحقه محمد بالمسيحية ينسب الى جهله أكثر مما ينسب الى خبثه (٢١) .

* * *

١٠ ـ ايرهـارت (J. Ehrhardt) :

وهناك كتيب من تاليف ياكوب ايرهارت كان يعد بالنسبة لعصره جهـدا جديرا بالاعتبار نقد فيه الأخطاء الأساسية للكتاب المعدودين وغـير

---

(٢٠) يحيل بفانموللر هنا على ص ٢١٦ حيث تحدث هناك عن ترجمة سيل للقرآن من حيث كونها كانت وسطا بين الترجمة الحرفية والترجمة الحرة ، ويشير الى ما فيها من قصور ثم يتحدث عن محتويات « المقدمة التمهيدية » التى كان لها صدى بعيد .

(٢١) يزعم المستشرقون واللاهوتيون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعرف التعاليم « الصحيحة » للمسيحية وبنى معارضته للتعاليم المسيحية على ما عرفه من صورة زائفة كانت شائعة حينذاك . ويعبر مستشرق معاصر هو « رودى بارت » عن ذلك بقوله : لقد كانت معلومات الناس عن المسيحيـة فى مكة فى العصر الذى عاش فيه محمد معلومات محدودة وناقصة ، ولم يكن المسيحيون العرب يسلكون النهج الصحيح فى معتقداتهم ، وكانت تروج هناك آراء بدعية منحرفة .. ولولا ذلك ـ كما يزعم بارت ـ لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التى تنكر صلب المسيح وتذهب الى أن نظرية التثليث لا تعنى الآب والابن وروح القدس ، وانما تعنى الله وعيسى ومريم الخ (راجع كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ وما بعدهـا) . وهكذا ينكر المستشرقون أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد تلقى معلوماتـه عن المسيحية من أعلى عن طريق وحى سماوى أراد الله به أن يصحح العقائد التى أفسدتها عقول البشر على مر العصور .

المعدودين فى عرضهم لتاريخ محمد ، وكشف فيه عن اسباب ذلك(٢٢) . فهو يتناول – على سبيل المثال – الأخطاء المتعلقة بالترتيب الزمنى والأخطاء الجغرافية والأغلاط والأساطير المتعلقة بمعلمى محمد ، ويتناول أعمال السلب والنهب واللصوصية التى نسبت اليه ، وما يقال عن معجزاته وصورته ومرضه بالصرع وغير ذلك .

* * *

ثانيا : عصر التنوير الفرنسى

● **فولتير** (Voltaire) :

بعد تسع سنوات من ظهور حياة محمد لجان جانييه عرضت فى عام ١٧٤١ مسرحية فولتير الشهيرة « التعصب أو محمد النبى » أول مرة فى (ليل Lille) . وفى هذه المسرحية يصف فولتير النبى بنفس الطريقة القديمة بوصفه منافقا عديم الحياء ودجالا ، ومستبدا تحركه الشهوات الحسية ووغدا متعطشا للدماء(٢٣) .

ولم يكن فولتير يريد بمسرحيته اطلاقا أن يصف محمدا كما يعرفه التاريخ ، وانما استخدمه فقط لكى يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد خداع القساوسة والخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط به ضرورة من نزعة التعصب .

---

(٢٢) ظهرکتاب ياكوب ايرهارت فى مدينة أولم بألمانيا عام ١٧٣١ باللغة اللاتينية بعنوان : « حول أخطاء الكتاب المشهورين وغير المشهورين فى عرض تاريخ محمد وأسباب ذلك » .

(٢٣) لم يكن موليتر (١٦٩٤ – ١٧٧٨) – وهو أديب فرنسا الشهير وتطب عصر التنوير الفرنسى – لم يكن يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى حقيقة الأمر بكل هذه الأوصاف ، كما يشير الى ذلك بفانموللر عقب ذلك مباشرة ، بل كان يعنى المؤسسة الكاثوليكية بكل ما تمثله . وأقل ما يمكن أن يصف به المرء موقف فولتير هنا هو أنه نفاق كريه وتضليل متعمد وعمل لا أخلاقى . وقد عدل فولتير من موقفه بعد ذلك ونعت محمدا صلى الله عليه وسلم بكل أوصاف التمجيد والاكبار . ومن حسن الحظ أن هذا الموقف الأخير هو الذى ذاع وانتشر فى الأوساط الثقافية فى فرنسا آنذاك كما يشير الى ذلك بفانموللر أيضا .

OBEIKAN.COM

وبجانب هذه الصورة لمحمد نجد لدى فولتير صورة أخرى فى مقالته الشهيرة عن الأخلاق (Essai sur les moeurs) . ففى هذه المقالة لم يعد محمد يظهر بوصفه « كبير المنافقين » ، بل بوصفه الرجل العظيم وبوصفه (كروميل Cromwell) (٢٤) آخر ، جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم الواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يلعبها انسان على ظهر الأرض . وهنا نجد فولتير معتمدا بوضوح على بولانفلييه .

* * *

● أثر كتابات فولتير فى الأوساط الثقافية :

لقد قرأ الكثيرون مقالة فولتير (فى الأخلاق) بحماس . وسرعان ما أصبح محمد موضوعا للأحاديث فى صالونات العصر . وبعض المتخلفين عن الركب فقط مثل (ديدرو Diderot) فى كتابه « رسائل الى صوفى فولاند » تجرأ على القول بأن محمدا كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل(٢٥) . وفى مقابل هذه الآراء القديمة دأب الموسوعيون واصدقاؤهم على تكرير صيغ فولتير مع مبالغات مماثلة .

وعلى الرغم من اعجاب ديدرو الخفى بمحمد فانه يصفه بأنه مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة . وقد أتى الجماعون (Kompilatoren)

---

(٢٤) أوليفر كروميل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) رجل دولة انجليزى عظيم وقائد جيش شهير ، وضع حدا للحرب الأهلية فى انجلترا آنذاك ، وقاد حروبا ناجحة ضد هولاندا واسبانيا وبذلك نهض بقوة انجلترا البحرية والتجارية . وكان أيضا من أتباع المتطهرين المتشددين ، وهم البروتستانت الانجليز الذين أرادوا أن يعيدوا للكنيسة طهارتها بتخليصها من كل أخطاء الكاثوليك .

(٢٥) دينيه ديدرو (١٧١٣ — ١٧٨٤) أحد أعلام الكتاب فى عصر التنوير الفرنسى ، كان رئيس تحرير دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة ومؤلف العديد من مقالاتها . وله العديد من الروايات والمسرحيات الفكاهية ووصفه هنا للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه « كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل » بجانب وصفه له بعد ذلك بأنه « مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة » يدل على التخبط والتناقض ، اذ كيف يوصف المشرع الماهر الداعى الى الفضيلة بأنه عدو للعقل ؟ ومن ناحية اخرى فان من المعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالنساء خيرا فى حديث مشهور . وهذا أمر يحسب للاسلام لا عليه .

أو الكتاب المزلعون بالجمع ـ كما يحدث دائما ـ لكى يستغلوا هذه الشهرة الجديدة . وهكذا قام (توربين Turpin) بتعريف جمهوره ـ فى مجلدات تفتقد الأصالة لكنها مكتوبة بأسلوب سهل ـ بهذا الفيلسوف (يقصد محمدا) الذى ثقفته الطبيعة والمشرع الذى لم يعتمد على عون من جانب العلوم .

وقد بدأت الأكاديميات نفسها التى تأثرت بالحركة (الجديدة) بدأت فى تنافسها على وضع محمد كموضوع للمديح . وقد كان ذلك هو التدشين الرسمى لانتصار محمد .

وهكذا وضعت « أكاديمية النقوش والآداب » موضوعا للمسابقة بعنوان « زرادشت وكونفوشيوس ومحمد : مقارنتهم بوصفهم أصحاب مذاهب ومشرعين وأخلاقيين » . وقد فاز فى هذا الصدد (باستوريت Pastoret) .

وفى عام ١٨٠٥ أعلن قسم التاريخ والأدب الكلاسيكى بالمعهد عن مسابقة موضوعها : « تأثير محمد أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة » . وقد حصل أحد الألمان وهو (أولزنر Oelsner) على أحد جوائزها .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ الجميع يقرأون القرآن الكريم وقد امتدح المرء أفكار محمد السياسية ونظرياته الأخلاقية ونظامه التشريعى . وأخيرا قدم سافارى ترجمة جديدة للقرآن (انظر ص ٢١٥)(٢٦) .

* * *

(٢٦) يحيل بفانهوللر هنا الى ص ٢١٥ حيث أشار هناك الى ترجمة سافارى للقرآن التى ظهرت فى باريس عام ١٧٨٣ وجاءت عقب ترجمات سيئة أخرى تركت فى النفوس انطباعات سيئة عن القرآن ومضمونه وأسلوبه الخ .

OBEIKAN.COM

ثالثا : من عصر التنوير الألمانى الى ظهور أول كتاب تاريخى نقدى عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل

١ ـ ليبنتز (Leibniz) :

لقد امتدح ممثلو عصر التنوير الألمانى محمدا بوصفه داعية للدين الطبيعى . وكتب ليبنتز(٢٧) ـ على سبيل المثال ـ فى مقدمة كتابه « فى العدالة الالهية » يقول : « لم يبتعد محمد أيضا من هذه التعاليم العظيمة للدين ، وقد قام أتباعه بنشرها بين الشعوب فى أقصى بلاد آسيا وافريقيا ، تلك البلاد التى لم تكن المسيحية قد دخلتها بعد . وقد قضوا فى كثير من البلاد على الخرافات والمعتقدات الوثنية التى كانت تقف موقفا معارضا للتعاليم الحقة التى تتمثل فى وحدة الله وخلود النفس » .

* * *

٢ ـ ليسنج (Lessing) :

أما ليسنج(٢٨) فانه يعبر فى أحد أعماله « انقاذ هيرونيموس كاردانوس » عن الاقتناع « بأن الأخبار التى كانت معروفة فى عصر (كاردانوس Cardanus) (٢٩) عن محمد وتعاليمه كانت أخبارا قاصرة

---

(٢٧) جوتفريد فلهلم ليبنتز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) فيلسوف ألمانى شهير ، كان صاحب عقلية موسوعية نادرة وكانت له جهود وابتكارات فى مجالات علمية وفلسفية عديدة . وهو صاحب نظرية الذرات الروحية فى الفلسفة وهى نظرية تقول بأن الكون مؤلف من جواهر بسيطة روحية كل منها يمثل الوجود كله .

(٢٨) ليسنج « جوتهولد افرايم » (١٧٢٩ ـ ١٧٧٨) من أعظم أدباء ألمانيا فى القرن الثامن عشر ، عمل على تحرير الشعر الألمانى من الاعتماد على النماذج الفرنسية . وقد أصبح أسلوبه نموذجا يحتذى فى النثر الأدبى . كتب عددا من المسرحيات النكاهية وله أعمال أدبية أخرى مشهورة .

(٢٩) كاردانوس (١٥٠١ ـ ١٥٧٦) طبيب ايطالى وعالم فى الرياضيات ، كتب سيرة حياته بنفسه ، وله جهود فى مجال الرياضيات معروفة باسمه .

OBEIKAN.COM

جـدا وممزوجة بألف من الأكاذيب التى كان المجادلون المسيحيون مولعين بأخـذها على أنها حقائق ، اذ أنهم بذلك يكون لديهم لعبة اسـهل . ولم تصـل الينا معرفة أمينة عن ذلك ـ أى عن محمـد وتعاليمه ـ قبل مؤلفات كل من ريلاند وسيل ، تلك المؤلفات التى أطلعتنا فى الأغلب على أن محمـدا ليس دجالا عابثا ، وأن دينه ليس مجرد نسـيج من الأباطيل والمتناقضات المرصوصة بجوار بعضها » .

وفى « شذرات فولفنبوتل » يرجع ليسنج تعاليم محمد الى الدين الطبيعى كما فعل ليبنتز :

« صحيح أن قرآن محمد والعقيدة التركية لهما لدينا سمعة سيئة ، وليس ذلك فقط لأن مؤسس هـذا الدين قد استخدم التضليل والعنف . بل لأن هناك أيضا (فى هـذه العقيدة) كثيرا من الحماقات والأضاليل مختلطة ببعض العادات الخارجية الوافدة التى لا ضرورة لها(٣٠) . ولست أريد أيضا أن أتحدث باسـمه ـ أى باسم محمد ـ ، وأقل من ذلك كثيرا أن أرفع من شأنه على حسـاب الديانة المسيحية . ولكنى على يقين من أن هنـاك من بين من يحملون الديانة التركية مسئولية هذا أو ذاك من الأخطاء قلة قليلة جدا ممن اطلع على القرآن . وأن هنـاك أيضا قلة قليلة جـدا من بين هؤلاء الذين قرأوه كان لديهم القصد لاعطـاء كلمات (القرآن) معنى معقولا يمكن للمرء أن يفهمه . وفى وسعى ـ اذا كان هـذا مقصدى الأساسى ـ أن أبين أفضل ما فى الدين الطبيعى من القرآن معروضا بوضوح ومعبرا عنه الى حد ما تعبيرا جميلا » .

« وأعتقد أننى سأجد بسـهولة الاستحسان فى ذلك لدى الفاهمين اذا قلت ان كل شىء جوهرى فى تعاليم محمد يكاد ان يؤدى الى الدين الطبيعى.وقد امتدح العالم (توماس هايد Thomas Hyde) (٣١) فى

---

(٣٠) على الرغم من أن ليسنج قد تحدث حديثا طيبا عن الاسـلام بعد هذه العبارات الا أنه فى هذه العبارات السابقة يخلط ـ كما يفعل غيره كثيرون أيضا ـ بين الاسلام كدين وتعاليم وبين عادات وتقاليد أو سلوكيات معينة للأتراك العثمانيين فى ذلك الزمان . وقد كانت الدولة العثمانية لا تزال حينذاك ذات قوة مؤثرة فى العـالم ، وكانت أوروبا لا تزال تخشى بأسها وتحسب لها ألف حسـاب .

(٣١) توماس هايد (١٦٣٦ ـ ١٧٠٣) مستشرق انجليزى ، كان أستاذا للعربية والعبرية فى أكسفورد .

كتابه (تاريخ ديانة الفرس القدماء واصحاب مذاهب السحر ، ١٧٠٠ ، ص ٣٣) وهو من العلماء الذين يتحتم على المرء أن يعدهم من العارفين وأن يعدهم كذلك من المحايدين ـ امتدح محمدا بوصفه مجددا للدين الحقيقى لابراهيم » .

« وأما جورج سيل ـ الذى يعد أوثق المترجمين والمفسرين للقرآن ـ فانه يبين فى مقدمته للقرآن أن مبدأ تعاليم محمد يقوم على توحيد الله أو على حقيقة أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد هناك الا اله واحد ، وأن القصد الذى يتمثل فى نقل العرب المشركين من الوثنية الى معرفة الله الواحد كان قصدا نبيلا ومحمودا جدا ، وأن السيد « بريدو » قد زعم بلا سبب أن محمدا قد أتى للعرب بدلا من الوثنية بدين سىء مثل الوثنية . ويقول السيد « سيل » بأن الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل التى يشتمل عليها القرآن ، وبصفة خاصة الحث على عبادة اله واحد حق تعد أمورا ممتازة الى حد ما لدرجة أن المسيحى يود أن يراعيها حقا » .

وفى بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر فى الوقت نفسه تقريبا عالمان ألمانيان بترجمتين للقرآن من النص الأصلى قضيا فى اعدادهما زمنا طويلا وهما (دافيد فريدريش ميجرلين Megerlin) و (فريدريش ايرهارد بويزن Boysen) (ص ٢١٧) (٣٢) . وقد ثبت أن جوته قد استخدم ترجمة أولهما .

* * *

٣ ـ جوته (Goethe) :

وقد اهتم جوته(٣٣) أثناء حياته كلها اهتماما كبيرا بمحمد ، كما بين ذلك (ياكوب مينور Minor) بالتفصيل فى كتابه « محمد لدى

---

(٣٢) أشار بفانموللر فى ص ٢١٧ الى هاتين الترجمتين ، وذكر أن الترجمة الأولى قد ظهرت عام ١٧٧٢ واعتمد فيها ميجرلين بجانب النص الأصلى على ترجمات سابقة فى لغات أخرى . أما الترجمة الثانية فقد ظهرت عام ١٧٧٣ ، ويرى بفانموللر أنها أفضل من الترجمة الأولى .

(٣٣) يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) يعد أعظم شعراء ألمانيا على الاطلاق ، كان منصفا للشرق وللاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، قرأ القرآن وتأثر به واقتبس منه الكثير وبخاصة فى الديوان الذى أطلق عليه اسم « الديوان الشرقى الغربى » .

جوته »(٣٤) وفى خريف عام ١٧٧٣ ظهر « نشيد محمد » وفيه يقارن جوته محمدا بنهر ينمو باستمرار ويجذب فى سيره اخوته معه الى الأب الخالد .

وفى كتابه « الشعر والحقيقة » يقول جوته ان هذا النشيد المدحى كان قد قصد به فى الأصل أن يكون اضافة شعرية لمسرحية عن محمد كان قد خطط لها . وقد كان يريد أن يصور فيها كيف تؤثر العبقرية فى الناس عن طريق الأخلاق والعقل ، وكيف تنتصر العبقرية فى ذلك وكيف تخسر .

وفى عام ١٧٩٩ عاد جوته مرة أخرى الى الاشتغال بموضوع محمد بأن قام ـ بناء على رغبة الدوق (كارل أوجسطس Augusts) وضد ارادته هو تماما ـ بترجمة مسرحية فولتير عن محمد واعدادها للمسرح .

وهناك أخيرا أكثر من اثنتى عشرة قصيدة من أشعاره فى « الديوان الشرقى الغربى » تهتم بمحمد وبالقرآن . وفى الملاحظات والمقالات حول هذا الديوان يعود جوته ـ بوصفه مؤرخا ـ للحديث عن محمد وتعاليمه .

* * *

٤ ـ جيبون (Gibbon) :

وفى السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر أيضا الكتاب الشهير لجيبون(٣٥) عن « تاريخ انهيار وغروب الدولة الرومانية » . ويتخذ جيبون ازاء محمد نفس الموقف الذى اتخذه توربين والذى يتمثل فى أن مآثر محمد قد رفع من شأنها ـ فى رأيه ـ تشويهات المسيحيين غير الحكيمة أكثر بكثير مما حقرت منها . ولا يريد جيبون أن يقرر أيضا ما اذا كان

---

(٣٤) نشر هذا الكتاب فى بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٣٥) ادوارد جيبون (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) مؤرخ انجليزى شهير . وقد ظهر كتابه المشار اليه فى عامى ١٧٧٧/١٧٧٨ وترجم الى الألمانية عام ١٩٠٣ .

OBELIKAN.COM

محمـد متحمسا أو دجالا لأنه ليست هنـاك الا خطـوة واحـدة فقط من التحمس الى الدجل(٣٦) .

* * *

٥ ـ هـردر (Herder) :

وعلى العكس من ذلك فانه لم يكن هناك مجال للشك لدى هردر(٣٧) فى أن محمدا كان فى الحقيقة متحمسا (Schwärmer) . ويصف هردر محمدا بأنه : « مزيج خاص من كل ما يمكن أن تعطيه الأمة والقبيلة والزمان والمكان . فقد كان تاجرا ونبيا وخطيبا وشاعرا وبطلا ومشرعا ، وكل ذلك حسب الطريقة العربية » .

ويبـدو أن سبب نبوته يتمثل فى البغض لشناعة عبادة الأصـنام والتحمس لتعاليم توحيد الله وطريقة التعبد له بالطهارة والذكر والعمـل الصالح . « وقد كانت التقاليد الفاسدة لليهودية والمسيحية ، وطريقة التفكير الشاعرية لأمته ولغة قبيلته ومواهبه الشخصية ـ كانت كلها كأنهـا الأجنحة التى حلقت به فوق نفسه وخارج نفسه » .

ولكن هردر يعبر عن حكمه على القرآن على النحو التالى :

« هـذا الخليط الفريد من فن الشعر وحسن البيان والجهل والذكاء والتكبر هو مرآة نفسـه التى تبين مواهبـه ونقائصه وميوله وأخطاءه وخداع نفسـه والمعونات الوقتية التى خدع بها نفسـه وخدع الآخرين ، وذلك (كله) بدرجة أكثر وضوحا مما يتبين فى أى قرآن آخر لنبى من الأنبياء »(٣٨) .

* * *

---

(٣٦) اذا كان جيبون لم يستطع أن يدرك الفرق بين الحماس الدينى الحقيقى والدجل فلعله كان فى وسعه أن يدرك الفرق بين الحق والباطل لو تجرد لطلب الحقيقة بعيدا عن الأهواء والأحكام السابقة . والفرق بين الحق والباطل ليس مجرد خطوة واحدة بل هو فرق ما بين السماء والأرض .

(٣٧) يوهان جوتفريد فون هردر (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) كاتب ألمـانى معروف وعالم فى اللاهوت . ومن مؤلفاته « أفكار لفلسفة تاريخ الانسانية » وقد تأثر به جوته فى شبابه .

(٣٨) الفكرة الأساسية المسبقة لدى هردر وأمثاله هى أن القرآن من تأليف محمد ، ولذلك فهو مرآة نفسه وانتاج عقله . ومن هنا فاذا ورد

٦ ـ أولزنر (Oelsner) :

وعلى أكتاف هردر يبرز أولزنر فى بداية القرن التاسع عشر بكتابه الذى نال به أحد الجوائز فى عام ١٨٠٩ . وعنده يعد محمد فى الأصل متحمسا وجد الدليل على بعثته فى قوة اعتقاده فقط ، ومن السهل أن يخلط المرء بينه وبين مجرد انسان دجال . واذا لم تكن هناك ايضا أغراض طموحية قد عملت على تحريكه فى البداية فانها قد أتت فى أعقاب الحماس . وبنفس القدر الذى برد فيه الحماس لقضية الله أو قضية الوطن اشتد لديه الغرض الأنانى عن طريق كل الوسائل المساعدة التى أكسبها له حماسه النارى السابق . وبطبيعة الحال لا يمكن تحديد التوقيت الذى انتهى فيه خداع الذات وبدأ فيه الدجل تحديدا دقيقا(٣٩) .

ويصف أولزنر محمدا بالتفصيل بأنه الداعى للاله الواحد وبأنه أستاذ فى الديبلوماسية وبأنه رجل دولة وقائد جيش عبقرى . ولكن بمرور الزمن تحول دينه من دين يدعو للسلام ويمقت الحرب الى دين للسيف ، وان كان أولزنر أيضا ـ كما كان فولتير من قبله ـ لا يرى اطلاقا أن النجاحات التى حققها الاسلام يعود الفضل فيها الى السيف وحده .

* * *

=

فى القرآن أنه وحى الله اعتبروا ذلك نوعا من الخداع أو التضليل . واذا كان هذا هو موقفهم الأساسى الذى يسيطر عليهم قبل التعرف على القرآن فلن يصلوا الى حقيقة الاسلام أبدا الا اذا أزالوا من على أعينهم وقلوبهم هذه الغشاوة المتمثلة فى الأوهام والأحكام السابقة ، وتخلصوا من التعصب الذى يحجب عنهم نور الحقيقة .

(٣٩) هذه كلها مزاعم لا تعتمد على أى أساس من الواقع ولا من التاريخ ، وتدخل كلها فى باب التخمينات والظنون . وما قام به النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة من تنظيم المجتمع وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة يعد جزءا لا يتجزأ من الاسلام الذى جاء نظاما للحياة بكل جوانبها . واذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين فعليهم أن يعيدوا النظر فى أفهامهم وتصوراتهم بدلا من خداع النفس بأنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة .

٧ ـ رينو (Reinaud) :

وقد قدم رينو(٤٠) للبحث فى حياة محمد اسهاما يمتاز بقيمة خاصة فى العرض الموجز الذى قدمه عن حياة محمد فى كتابه « الآثار الفارسية والعربية والتركية فى ديوان السيد الدوق دو بلاكا » (باريس ١٨٢٨) . وقد قام رينو فى عام ١٨٦٠ باكمال هذا العرض الموجز بصورة هامة على أساس ما صدر منذئذ من مراجع ، ونشره كمقال ضمن « تراجم عامة جديدة » التى أصدرها (ديدو Didot) .

وفى هذه المقالة يقدم رينو فى البداية وصفا تفصيليا لحياة محمد بناء على أقدم وأوثق الشواهد والأدلة ، وبصفة خاصة بناء على القرآن الذى يعد أهم مصدر معاصر لمحمد ، ثم يرسم رينو صورة واضحة لشخصية النبى ، ويتبع ذلك بوصف للمصادر الرئيسية لحياة محمد وتعاليمه وأولها الحديث وأقدم التراجم العربية ، ثم يصف رينو القرآن بتفصيل خاص ، وبالاضافة الى ذلك يتناول بعض مسائل جزئية هامة من مسائل البحث فى حياة محمد ، ومن أمثلة ذلك :

هل كان محمد مصابا بالصرع ؟

كيف كان محمد يتلقى الوحى ؟

هل كان محمد يستطيع الكتابة ؟

وفى النهاية يتناول رينو علاقة محمد بالملك جبريل ويتناول اهم تفاسير القرآن وأهم النشرات والترجمات للقرآن . وقد أضفى البيان الوافر للمراجع على المقالة قيمة خاصة ، تلك المقالة التى قدمت صورة ممتازة لمستوى البحث فى حياة محمد فى عام ١٨٦٠ .

* * *

---

(٤٠) جوزيف توسن رينو (١٧٩٥ ــ ١٨٦٧) مستشرق فرنسى ، كان أمينا لقسم المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس ، وأستاذا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ، وله جهود علمية فى مجالات الأدب العربى والتاريخ تأليفا وتحقيقا وترجمة .

OBEIKAN.COM

٨ ـ هامر بورجشتال (Hammer - Purgstall) :

أما المستشرق الشهير يوسف فون هامر ـ بورجشتال(٤١) ـ الذى كان لمؤلفاته تأثير قوى على جوته ـ فقد تناول محمدا أيضا فى المقام الأول فى كتابه « صور لحياة الحكام المسلمين العظام » . وقد عرف برجشتال جزءا فقط من سيرة ابن هشام . وفى مقابل ذلك كانت أمامه ثلاثة من الكتب الأخرى التى استخدمت هنا للمرة الأولى من جانب أحد الأوروبيين وهى :

« الخميس » للحسين الديار بكرى(٤٢) ، ووصف لحياة محمد باللغة الفارسية من تأليف عبد الله ، والترجمة التركية لقصص النبى من تأليف ابراهيم الحلبى (٤٣) والتى طبعت فى القاهرة عام ١٨٣٣ م .

ويلخص هامر برجشتال حكمه على محمد فى نهاية كتابه على النحو التالى :

« على الرغم من ضلال شهوانيته ، وعلى الرغم من الجرائم التى سولتها لنفسه حدة الطبع ، وبصفة خاصة الثأر لشرفه المهان عن طريق السخرية والاستهزاء(٤٤) ، وعلى الرغم من وجهة النظر المتناقضة التى

---

(٤١) بورجشتال (١٧٧٤ ـ ١٨٥٦) مستشرق نمساوى شهير . له دراسات عديدة فى تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام . أصدر أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوروبا عام ١٨٠٩ هى مجلة « ينابيع الشرق » . وأهم مؤلفاته : تاريخ الدولة العثمانية فى عشرة مجلدات ، وتاريخ الآداب العربية فى سبعة مجلدات .

(٤٢) هو حسين بن محمد الدياربكرى (توفى حوالى ١٥٧٤ م) تولى القضاء فى مكة ، وكان شافعى المذهب . ومن مصنفاته « تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس » تناول فيه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الى السلطان مراد العثمانى .

(٤٣) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الحلبى (توفى عام ٩٥٦ هـ) . فقيه حنفى من أهل حلب . تفقه بها وبمصر ثم استقر فى القسطنطينية وتوفى بها . وأشهر كتبه « ملتقى الأبحر » ومختصر طبقات الحنابلة وتلخيص القاموس المحيط (راجع الأعلام للزركلى) .

(٤٤) المعروف أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد تزوج خديجة ـ التى كانت تكبره بسنوات ـ وعمره خمس وعشرون عاما ، وكان قد سبق

عبر عنها مؤرخون مشهورون ومستشرقون والتى تتمثل فى أن محمدا لم يكن الا مجرد كذاب ودجال من منطلق حبه للسيطرة ـ على الرغم من كل ذلك فاننا يجب أن نثبت على رأينا وهو أن محمدا لم ينطلق فقط من الفكرة العظيمة التى تتمثل فى هداية شعبه من ضلال الوثنية الى الطريق المستقيم بعبادة الله وحده ، بل كان يتمتع أيضا بمواهب شعرية ومشاعر دينية حية ، وكان مقتنعا ببعثته فى ساعات حماسه ، ورأى ـ كما رأى غيره من الأنبياء الذين سبقوه ـ أنه أداة السماء لهداية شعبه ، وأنه مؤسس واحد من الأديان الثلاثة التى انتشرت من مصر وسوريا وبلاد العرب الى كل بقاع الأرض وأنه خاتم الأنبياء واللبنة الأخيرة » .

* * *

٩ ـ كارلايل (Carlyle) :

وفى عام ١٨٤٠ ظهر الكتاب الشهير لكارلايل (٤٥) « حول الأبطال وتقدير الأبطال » الذى خصص فيه المحاضرة الثانية للحديث عن محمد وعن الاسلام . وكارلايل لا يعتبر محمدا أحق الأنبياء ، ولكن يعتبره نبيا حقيقيا . أما الرأى السائد عن حقيقة محمد والذى يتمثل فى أنه كان دجالا متعمدا وأن دينه عبارة عن خليط من الدجل الطبى والاسفاف فان كارلايل يعتبره رأيا باطلا .

= لها أن تزوجت قبل ذلك مرتين ، وظلت له زوجة وحيدة الى أن ماتت بعد أن أمضى معها ثمانية وعشرين عاما . وبعد ذلك ـــ أى وهو فى العقد السادس من عمره ـــ تزوج سودة بنت زمعة أرملة أحد صحابته ثم تزوج باقى نسائه لأسباب انسانية نبيلة أو أهداف تشريعية . فأين هنا ضلال شهوانيته المزعوم ؟ . أما الثأر لشرفه المهان وحدة الطبع .. الخ . فهذا لم يعرف عنه اطلاقا . فقد كان « رحمة للعالمين » تمكن من أهل مكة الذين لاقى هو وأصحابه على أيديهم الأمرين وكان يستطيع أن يجمعهم ويأمر بقتلهم جزاء وفاقا على ما اقترفوه فى حقه وحق أصحابه من جرائم ، ولكنه عفا عنهم يوم فتح مكة عفوا مطلقا وقال قولته الشهيرة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . (انظر كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٧) .

(٤٥) توماس كارلايل ـــ أو : كارليل (١٧٩٥ ـــ ١٨٨١) مؤرخ انجليزى وأحد فلاسفة الحضارة .. وقد قام الأستاذ على أدهم بترجمة الجزء الخاص بالنبى صلى الله عليه وسلم فى كتاب « الأبطال » الى اللغة العربية .

« فالأكاذيب التى عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول هـذا الرجل (يقصد محمدا) لا تسب أحدا غيرنا » . وأكثر من ذلك يصف كارلايل محمدا بأنه كان « نفسا عظيمة وهادئة ، لقد كـان واحـدا من هؤلاء الذين استطاعوا أن يأخذوا الأمور بجدية ، والذين وجهتهم الطبيعة نفسها لكى يكونوا مستقيمين » . فالأصـالة والاسـتقامة هما الصفتان المميزتان لأخلاقه . ولكن هـذه الاستقامة كانت تشتمل على شىء الهى ، « فكلمـة مثل هـذا الانسان هى صـوت مباشر من قلب الطبيعة الحقيقية » .

ولم يكن محمد فى حياته الشخصية من عشاق اللذة على الاطلاق . فقد كان متاع بيته يعد من أكثر الأمور اعتدالا . ومع ذلك « فلم يحظ أى قيصر بتاجه بالطاعة مثلمـا حظى هـذا الرجل بردائه الذى كان يرقعه بيده » .

اما القرآن فان كارلايل يطلق عليـه أنه « بلبلة ثقيلة ومحيرة ، فهو ساذج ومجدب ، يشتمل على تكرير واسهاب وتشابك لا حد له ، وهو جاف وغير ناضج ، وباختصار هو سخف لا يطاق »(٤٦) .

ومع ذلك تكمن فيه قيمة أخرى تختلف تماما عن القيمة الأدبية . فهو بمثابة تخمر مبهم لنفس انسانية كبيرة وساذجة ، غير ناضجة وغير مثقفة ولم تكن تستطيع حتى أن تقرأ ، ولكنها نفس جادة وتفيض حماسا وتسعى سعيا جبارا لكى تعبر عن ذاتها فى كلمات » .

* * *

---

(٤٦) لقد تحدث كارلايل حديثا ايجابيا تماما عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عاد وخيب الآمال برأيه فى القرآن . وهـذا الرأى ينبنى — فى نظرنا — على أمرين هما : أولا : الموقف الأساسى الغربى الذى يصر على أن القرآن من تأليف محمد . وكارلايل — كما هو واضح — لا يشذ عن هـذا الموقف . ثانيا : الترجمـات السيئة للقـرآن والتى تعطى مثل هـذا الانطباع الذى تحدث عنه كارلايل .

ولا نريد أن نتجنى على كارلايل ونقول انه قد تعمد الاساءة للقرآن . ولكن الأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان متخلقا بأخلاق القرآن كما قالت عنه عائشة رضى الله عنها . فكيف يمكن لكتاب يشتمل على بلبلة ثقيلة ومحيرة وعلى سخف لا يحتمل . . . الخ أن يخرج لنا هـذه الشخصية العظيمة التى تحدث عنها كارلايل نفسه بكل اكبار وتعظيم . أليس فى ذلك ما يدعو الغربيين الى اعادة النظر فى تلك الأحكام الجائرة على أقدس مقدسات الاسلام وهو القرآن ؟

رابعا : الكتابة التاريخية النقـدية لحياة محمد فى القرنين التاسع عشر والعشرين

١ ـ جوستاف فايل (Weil) :

لقد افتتح عام ١٨٤٣ حقبة جديدة فى البحث فى حياة محمد . فقد ظهر فى هـذا العام أول عرض تاريخى نقدى لحياة محمد من تأليف جوستاف فايل(٤٧) . وكانت كل الكتابات عن حياة محمد حتى ذلك الوقت لا تزال تستند باستمرار بدرجة تقل أو تكثر على كتاب جان جانييه الذى ظهر قبـل ذلك بقـرن من الزمان . ولكن جانييه ـ كمـا رأينا (ص ١٧١)(٤٨) ـ لم يضع لنفسـه مهمة وصف محمد كما كان ، بل كان يكتفى بترجمة المصادر العربية ويضعها ببساطة بجوار بعضها دون أى نقد . ولم يخطر ببال أحد ممن جاءوا بعده أن يقارنوا الترجمة التى قدمها بالنصوص الأصلية ولم يخضـعوا مضمونها لنقد تاريخـى . فقد أخذ كل منهم منها ما استطاع أن يستخدمه فى كتاباته . واذا حدث أن استخدمت بعد ذلك مصادر أخرى لسيرة محمد غير تلك التى كانت متوفرة لجانييه فان ذلك كان يحدث بسطحية وغفلة لا تليقان بالتاريخ .

ويتمثل الفضل الكبير لفايل فى أنه أول من قام بالمحاولة التالية :

أولا : بحث ما قرره العرب حول مؤسس الاسلام بحثا نقديا وعزل الوقائع التاريخية الموثوق بها من الأساطير المتأخرة .

ثانيا : بحث طبيعة محمد بوصفه انسانا ونبيا ومشرعا دون الوقـوع تحت أسر مذهبى .

---

(٤٧) جوستاف فايل (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩) مستشرق ألمـانى ، كان أستاذا للغات الشرقية . قام بترجمة كتاب « ألف ليلة وليلة » الى الألمانيـة ، ثم توفر على دراسـة التاريخ الاسـلامى . وأهم مؤلفاته ـ فضلا عن كتابه عن حياة محمد (١٨٤٣) ـ مقدمة تاريخية نقدية فى القرآن (١٨٤٤) وتاريخ الخلفاء ـ فى ثلاثة مجلدات (١٨٤٦ ـ ١٨٥١) وتاريخ الخلفـاء العباسيين فى مصر (١٨٦٠ ـ ١٨٦٢) . راجـع : (Fueck,p. 175) .

(٤٨) انظر ما سبق ذكره فى ذلك عند الحديث عن جانييه فذلك ما يعنيه بفانموللر هنا فى أحالته الى ص ١٧١ .

ثالثا : وأخيرا ، ترتيب القرآن ـ الذى يمثل مزيجا مختلف الألوان من الأناشيد والصلوات والأساطير والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظيمات ـ ترتيبا زمنيا .

ومن أجل هذا الغرض درس فايل القرآن بتفسير الجلالين (ص ٢٢٧)(٤٩) ، وبالهوامش العلمية لكل من مارانتشى (ص ٢١٤) وسيل (ص ٢١٦)(٥٠) وان كانت هذه الهوامش ليست دائما تعد صائبة .

وبعد ذلك أعاد فايل قراءة تاريخ أبى الفداء من جديد (ص ١٢٨)(٥١) ، وكان (نويل فرجيه Noël des Vergers) (٥٢) قد بذل فى هذا الكتاب جهدا مشكورا كناشر ومترجم وشارح . وفضلا عن ذلك درس فايل بالاضافة الى جانبيه مختلف السير الأوروبية الصغيرة لحياة محمد ، وبوجه خاص تلك التى كتبها رينو (ص ١٧٥ وما بعدها)(٥٣) ، وقرأ أيضا مؤلفات (جايجر Geiger) (ص ١٠١ وما بعدها)(٥٤) ، ومؤلفات (جيروك Gerock) (ص ١٠٩ وما بعدها)(٥٥) عن علاقة المذهب المحمدى باليهودية والمسيحية .

---

(٤٩) أشار بفانموللر فى ص ٢٢٧ الى أن كتاب تفسير الجلالين لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى من أكثر الكتب استخداما لدى المستشرقين لسهولة استعماله .

(٥٠) فى ص ٢١٤ تحدث بفانموللر عن ترجمة مارانتشى للقرآن وجهوده فى هذا الصدد وفى ص ٢١٦ تحدث عن ترجمة سيل للقرآن وما لها وما عليها وعن مقدمته التمهيدية الشهيرة .

(٥١) فى ص ١٢٨ أشار بفانموللر الى المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ أبى الفداء ومنهم جانبيه وأدلر وفرجيه وموري .

(٥٢) فرجيه (١٨٠٥ — ١٨٦٧) مستشرق فرنسى ، له بعض الجهود العلمية عن ابن خلدون .

(٥٣) ما يشير اليه بفانموللر فى ص ١٧٥ . سبق الحديث عنه هنا فى هذا البحث عند الحديث عن رينو .

(٥٤) فى ص ١٠١ يتحدث بفانموللر عن جايجر وما يزعمه من التأثيرات اليهودية فى الاسلام وفى القرآن على وجه الخصوص .

(٥٥) فى ص ١٠٩ يتحدث بفانموللر عن الصلة بين القرآن والعهد الجديد ويشير الى أن جيروك قد بحث هذه المسألة وانتهى الى أن محمدا قد أخذ معلوماته عن المسيح من التراث الشعبى الذى كان سائدا فى بلاد العرب .

واخيرا جمع فايل شيئا فشيئا ما تضمنته عن محمد مؤلفات كل من هوتنجر وريلاند وبوكوك ، ومذكرات أكاديمية باريس ومجلة توبنجن للاهوت وغير ذلك من مؤلفات أخرى مشابهة .

ولكن فايل لم يكتف بذلك ، فقد بحث أيضا عن مصادر شرقية جديدة تماما . وقام من أجل هذه الغاية برحلة الى (جوتا Gotha) وبعد فحص دقيق للمخطوطات المختلفة التى تملكها المكتبة هناك عن محمد ، بدا له أن أكثرها فائدة بالنسبة لهذه الغاية كتاب « انسان العيون » لمؤلفه على الحلبى(٥٦) فى أربعة مجلدات كبيرة ، وكتاب « الخميس » لحسين بن محمد الحسن الديار بكرى فى مجلدين كبيرين .

صحيح أن هذين المؤلفين قد عاشا فى القرن السادس عشر ، ولكن نظرا لأنهما لم يغترفا المضمون من أقدم المصادر فحسب ، بل التزما أيضا بالكلمات من هذه المصادر ، وجمعا بأعظم قدر من الدقة كل ما وجداه عند السابقين من القرن الثانى للهجرة حتى عصرهما ـ نظرا لذلك فانهما يمكن ـ حسب رأى فايل ـ أن يوضعا بجانب أقدم المؤلفين من حيث الثقة بهما .

وفيما بعد حصل فايل من الأستاذ (افالد Ewald) (٥٧) على مخطوط بالغ الأهمية هو : سيرة الرسول لابن هشام (ص ١٢٩) . وأخيرا حصل من الأستاذ رينو من باريس على الشرح التركى للمقاطع الثلاثة والستين التى لخص فيها ابراهيم الحلبى سيرة محمد .

وعلى هذا النحو الذى أصبح فيه فايل مزودا بأفضل الوسائل المساعدة قام فى البداية بنقد صارم للمصادر ، ثم حاول أخيرا بوصفه مؤرخا القيام بعمل متكامل من تلك المصادر التى قام بفحصها فحصا نقديا . وقد اعتمد هنا فى عرضه على المصادر بقدر الامكان .

---

(٥٦) هو نور الدين بن برهان الدين على بن ابراهيم القاهرى الشافعى (٩٧٥ ــ ١٠٤٤ هـ) وأشهر مؤلفاته السيرة النبوية بعنوان « انسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » وتدعى عادة السيرة الحلبية .

(٥٧) هينريش افالد (١٨٠٣ ــ ١٨٧٥) مستشرق ألمانى ، كان عالما فى اللاهوت ومتخصصا فى العهد القديم وعلى دراية بعدد كبير من اللغات الشرقية وغير الشرقية .

وهكذا حصلنا على أول كتاب تاريخى نقدى لحياة محمد . ولكن المرء يجد بجانب ذلك (فى كتاب فايل) ليس فقط الحديث عن تعاليم العقيدة ، بل يجد أيضا عرضا لأهم قوانين العبادة وقوانين الأحوال المدنية والجنائية وقوانين الدولة فى الاسلام وذلك فى علاقتها بالحياة الخارجية لمحمد . أما حديث فايل عن القرآن فى القسم الأخير من كتابه فقد قام فى السنوات التالية لذلك باكماله فى كتابه « مقدمة تاريخية نقدية فى القرآن » (ص ٢٢١)(٥٨) . كما أن بحثه عن « الأساطير التى اخذها المسلمون من الكتاب المقدس » الذى ظهر عام ١٨٤٥ – يشكل أيضا اضافة مكملة فى جوانب معينة لمؤلفه الرئيسى . وتشتمل الملحقات بصفة أساسية على اقتباسات مترجمة ترجمة أمينة من المصادر ، وبصفة خاصة اقتباسات من كتاب ابراهيم الحلبى ، بوصفها أسانيد للدعاوى التى كانت تعد جديدة أو تلك التى كانت حتى ذلك الحين محل نزاع .

* * *

٢ ـ كوسان دى برسيفال (Perceval) :

أما حديث كوسان دى برسيفال(٥٩) عن محمد فى المجلد الثالث من كتابه « المقالات » فانه لا يشكل عملا مكملا لعمل فايل النقدى . فكوسان كثيرا ما يروى ما تقوله المصادر أكثر من اهتمامه بالبحث فى استقلال . لقد كان حقا مزودا بمعارف لغوية أكثر عمقا ودراسات تاريخية أولية أفضل من اسلافه ، وكان تحت يده أيضا مراجع مصدرية أقدم وأوثق (مما كان لدى غيره) . وهكذا فان فضله الرئيسى لا يتمثل فى تنمية البحث النقدى ، بل يتمثل فى أنه فى الغالب يجعل المصادر الأصيلة هى التى تتحدث .

* * *

---

(٥٨) يحيل بفانموللر هنا الى ص ٢٢١ حيث يتحدث هناك عن محتويات هذا الكتاب .

(٥٩) كوسان دى برسيفال (١٧٥٩ — ١٨٣٥) مستشرق فرنسى وكان أستاذا للغة العربية فى معهد فرنسا الذى تخرج فيه .

٣ ـ ارفينج (Irving) :

أما حياة محمد التى كتبها واشنطن ارفينج(٦٠) ـ على أساس من مصادر أسبانية وكتاب أبى الفداء لجانييه وكتابات جوستاف فايل ـ فانها على ما فيها من صياغة براقة ليست لها أهمية علمية .

* * *

٤ ـ رينان (Renan) :

وعلى أساس من أعمال فايل وكوسان دى برسيفال قدم رينان(٦١) رؤية مستفيضة عن محمد وعن نشأة الاسلام ، ولكنه لم يأت فى ذلك بجديد . ومصادر نشأة الاسلام ـ التى تبدو لنا اليوم بعد بحث شاق لا نهاية له أكثر ابهاما وغموضا من أى وقت آخر ـ تبدو لرينان واضحة لدرجة أنه يتحدث عن « دين نشأ فى وضح النهار » .

أما الشىء الهام (الذى قدمه رينان) فهو تلك النظرة السريعة على البحث فى حياة محمد وتقديم بعض الملامح المقارنة من تاريخ الأديان العام . ويصف رينان الاسلام بأنه « دين طبيعى عقلى يتصف بالجدية والليبرالية والبرود » .

* * *

٥ ـ ارنست ماير (E. Meier) :

ويعتمد على فايل أيضا ارنست ماير(٦٢) فى مقالته التى بين فى بعض نقاطها كيف يمكن أن نحصل أيضا على أكثر المعارف أهمية عن الحياة العقلية لمحمد وعن أخلاقه من خلال فهم أكثر دقة للقرآن .

* * *

---

(٦٠) واشنطن ايرفنج مستشرق أمريكى وقد صدر كتابه « حياة محمد » فى نيويورك عام ١٨٤٩ وترجم الى الألمانية عام ١٨٥١ .

(٦١) ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) فيلسوف ومستشرق فرنسى من مؤلفاته (ابن رشد والرشدية) الذى ترجمه عادل زعيتر الى العربية . وكتابه الذى يعتمد عليه بفانموللر هنا هو : دراسات فى تاريخ الأديان ـ باريس ١٨٥٧ .

(٦٢) نشر بحث ارنست ماير عن « محمد : حياته وتعاليمه » فى مجلة اللاهوت العلمى فى بينا بألمانيا عام ١٨٥٨ . العدد رقم ١ من ص ٤٧١ الى ٤٨٨ .

٦ ـ وليم موير (W. Muir) :

وترجع السيرة الكبرى الثانية لحياة محمد ـ بجانب فايل ـ الى العالم الانجليزى وليم موير(٦٣) . وقد انبثقت من مقالات نشرها المؤلف منذعام ١٨٥٣ فى مجلة كلكتا (Calcutta Review) . ويشتمل المجلد الأول فى البداية على المقدمة التى تتكون من الفصول الأربعة التالية :

١ ـ المصادر المتعلقة بسيرة حياة محمد .

٢ ـ السكان الأصليون وتجارة العرب القدامى وفقا للكتاب المقدس والمؤلفين القدماء .

٣ ـ تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام حسب المؤلفات التراثية المحمدية .

٤ ـ أجداد محمد وتاريخ مدينة مكة من منتصف القرن الخامس حتى مولد محمد فى عام ٥٧٠ ميلادية .

وبعد المقدمة فى المجلد الأول يأتى الفصل الأول من السيرة الحقيقية التى تستكمل فى المجلدات الثلاثة التالية فى سبع وثلاثين فصلا حتى تصل الى النهاية . وفى الفصول التى تتعلق بالأحداث الخارجية لا يقدم لنا المؤلف شيئا جديدا الا القليل . ويظهر المؤلف كباحث متعمق فى الفصل الثالث « عقيدة محمد فى الهاماته أو وحيه » . ومن الفصول الجيدة أيضا الفصل السابع « علاقة الاسلام بالمسيحية » ، والفصل السابع والثلاثون « شخص محمد وأخلاقه » .

وقد كان من الممكن اختصار الكتاب كثيرا بصفة خاصة فى الحديث عن التاريخ الخارجى المعروف المتعلق بمحمد ، كما أن القسم الأكبر من المجلد الأول الذى يتصل بالتاريخ الأقدم لبلاد العرب قد استقاه المؤلف من كتاب كوسان دى برسيفال . ولكن الفصل الأول من المقدمة يمتاز بقيمة كبيرة ، هذا الفصل الذى يهتم بمصادر سيرة محمد ويبحث فى درجات وثوقها المختلفة . وعلى الرغم من موقف المؤلف المصبوغ بصبغة

---

(٦٣) السير وليم موير (١٨١٩ ـ ١٩٠٥) مستشرق اسكتلندى . صدر كتابه عن (حياة محمد) فى أربعة أجزاء فى لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ .

مذهبية حادة فان عرضه (للموضوعات) كان باستمرار عرضا واضحا وجديرا بالتقدير ٠

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من عام ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ ، وظهرت الطبعة الثانية ـ التى اختصرت فيها بعض النقاط ـ فى عام ١٨٧٦ ، وظهرت الطبعة الثالثة فى مجلد واحد فى عام ١٨٩٤ ، ثم ظهرت طبعة جديدة منقحة فى عام ١٩١٢ ، ولكن هذا التنقيح لم يمتد الا الى تصحيح كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية وتصحيح الاقتباسات واضافة بعض الاشارات فى الهوامش ٠

أما كتاب موير « محمد والاسلام » فهو اختصار للكتاب الكبير « حياة محمد » ٠ ويدين المؤلف بالفضل كثيرا الى كل من فايل واشبرنجر ٠ وقد أخذ الصور الى حد ما من الكتاب المصور الرائع « مدنية العرب » الذى ألفه (ج ٠ لوبون Le Bon) ٠

* * *

٧ ـ الويس اشبرنجر (A. Sprenger) :

وأما الكتاب الثالث الكبير الذى تم تأليفه طبقا لوجهات نظر تاريخية نقدية فقد كان من تأليف الويس اشبرنجر(٦٤) وكان اشبرنجر قد نشر فى عام ١٨٥١ مؤلفا عن حياة محمد كتبه بالانجليزية ، ولكن لم يظهر من هذا المؤلف الا القسم الأول فقط ٠ ويشتمل هذا القسم الأول ـ بعد مدخل قصير ـ على الكتابين الأولين ٠ وقد تناول فى أولهما فى فصول ثلاثة تاريخ مكة ، وأجداد محمد ، والأساطير الاسلامية حول هذين الموضوعين ، ومصادر سيرة محمد ٠ وروى فى الكتاب الثانى فى فصول ثلاثة حياة محمد من مولده حتى وصوله الى المدينة ٠

---

(٦٤) ألويس اشبرنجر (١٨١٣ ـ ١٨٩٣) مستشرق نمساوى الأصل ، تجنس بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ ، كان أستاذا للغات الشرقية فى جامعة برن بسويسرا وعمل أيضا فى الهند ٠ ويقول المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت عن كتاب اشبرنجر (حياة محمد) : « انه كتاب جاء مخيبا للآمال فى أكثر من ناحية وانه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمى » (راجع : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية لبارت ص ٢٣) ٠

وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر المجلد الأول من كتابه الكبير عن سيرة محمد (بناء على مصادر لم تستخدم من قبل الا قليلا جدا) . وفى المقدمة يتحدث اشبرنجر عن نشأة كتابه والغاية منه . وقد قضى المؤلف أجمل سنوات عمره فى الشرق ، وتعرف بخبرته على البلاد التى تمثل موضوع بحوثه . وعمل مدة اثنى عشر عاما مشرفا على المعاهد العليا الاسلامية فى الهند العليا .

وقد استغل هذا الوقت لكى يجمع بلا كلل مخطوطات ومطبوعات شرقية ، وليتعمق فى لغة وروح الشرقيين . وبعد أن انتهت سنوات التجول تمثلت مهمته فى الاشتغال بالمادة (العلمية) التى جمعها فى الشرق (بهدف كتابة) تاريخ نشأة ذلك الدين العالمى الذى نملك وحدنا مصادر عن أصل نشأته(٦٥) .

وقد كانت هناك نظريات عديدة تم وضعها حول محمد ، فقد كان موير يعتقد أن الشيطان قد مارس لعبته مع محمد ، وكان كارلايل يرى فيه انسانا فذا . وفى ألمانيا سلب المرء من كلمة نبى كل ما تعنيه ثم زعم أنه كان نبيا .

ويريد اشبرنجر أن يبرهن على أن محمدا لم يكن لا بطلا بالمعنى الذى يقصده كارلايل ولا أداة للشيطان . وقد أدت نتائج بحوثه الى اقتناعه بأن الاسلام « لم ينبع من النسب والحسب ، ولا من ارادة اللحم(٦٦) ولا من ارادة رجل » ، بل من متطلبات العصر . واذا كان كارلايل قد قصد ان يقول عن محمد كل ما هو خير مما يستطيع المرء اثباته ، فان اشبرنجر ينهج نهجا مضادا تماما ، ويريد أن يلفت النظر عند كل مناسبة الى الضعف الانسانى لدى محمد . وحيث انه ليست لدينا أخبار عنه غير تلك الأخبار التى لدينا من جانب محبيه فانه « يجب على كاتب السيرة أن

---

(٦٥) على أى أساس ينبنى هذا الادعاء العريض بأن الأوروبيين وحدهم هم الذين لديهم مصادر عن أصل نشأة الاسلام ؟ هذا وهم لا يعتمد الا على منطق العجرفة وعقدة التفوق لدى الأوروبيين !

(٦٦) هكذا ورد التعبير فى الأصل ولعله يقصد بذلك أنه لم ينبع من سبب مادى بحت .

يقوم بالدور الخبيث لمثل الاتهام (Advocatus Diaboli) ، وأن يستخرج مساوىء أخلاقه من كلمات مدح محبيه »(٦٧) .

وقد قام اشبرنجر يقينا بتنفيذ هذا الدور ببراعة ! ومن خلال مهنته كطبيب ينظر فى أخلاق محمد بشغف من وجهة النظر الطبية وينتهى الى الاقتناع بأن محمدا كان انسانا هستيريا . وقد عارض سنوك هورجرونيه ذلك (قائلا) : ان الأهمية الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل فى هذا الذى يميزه عن غيره من الهستيريين ، وليس فى الأحوال المرضية التى يشترك معهم فيها(٦٨) .

واذا كان هذا الرأى أيضا (من جانب اشبرنجر) عن محمد لا يعد رأيا متينا فان كتاب اشبرنجر مع ذلك قد أصبحت له أهمية كبيرة بالنسبة للبحث الحديث كله فى موضوع محمد . وقد خص اشبرنجر القرآن بصفة خاصة بأعظم قدر من الاهتمام بوصفه المصدر الرئيسى لحياة محمد . ويصرح فى فخر بأنه « قد مهد الطريق لفهم القرآن » . ويشتمل كتابه على ترجمته المستقلة لثلثى القرآن تقريبا .

وطبقا لمقصد اشبرنجر فان كتابه قد خصص لطبقتين مختلفتين تماما من القراء : للباحث الذى لا يفهم العربية ، ومع ذلك يرغب فى دراسة متعمقة لطبيعة الاسلام ، وللقارىء غير المتعمق الدى يكتفى بنتائج بحوث الآخرين .

ولكن فيلهاوزن كان على حق فى حكمه (على عمل اشبرنجر على النحو التالى) :

« يعد كتاب اشبرنجر ينبوعا ثريا فى المادة والأفكار بالنسبة للدارسين للعلوم العربية القادرين على التمييز ، ولكنه غير مناسب اطلاقا للاطلاع بالنسبة لدائرة أوسع من جمهور الناس على الرغم مما يبدو من أنه قد خصص لذلك » (محمد فى المدينة ص ٢٦) . ولكن فيلهاوزن لا يريد أيضا أن ينكر الأهمية العالية لكتاب اشبرنجر :

---

(٦٧) الفرض اذن من بادىء الأمر هو البحث عن مساوىء ، وحيث أنه سيعييه البحث عنها دون جدوى فانه يلجأ الى تخيل مساوىء من كلمات المدح . فهل هذا منطق ، وهل هذا منهج علمى مقبول ؟

(٦٨) راجع تعليقنا على مثل هذه المزاعم فى ص ٩٠ من العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة .

OBEIKAN.COM

« على العكس من الطريقة التى كانت سائدة الى حد ما زمنا طويلا فى المانيا ، والتى كانت تنظر الى الأدب العربى على أنه بمثابة مجموعة كبيرة من الأمثلة لقواعد النحو فان اشبرنجر قد كان له تأثير منعش الى أقصى حد عن طريق شعوره الحى والسليم بالنسبة للأشياء ، وذلك باهتمامه المباشر والأصيل بمضمون التراث اهتماما بعيدا عن النظرة التخصصية الضيقة وعن اتباع مذهبية معينة . فهو رجل طبيعى صميم ، وفى ذلك تكمن قوته ، مع كل ألوان الضعف التى تلازمه أيضا من أجل ذلك » . (محمد فى المدينة ص ٢٤) .

وفى الختام نورد بيانا قصيرا بمضمون المجلدات الثلاثة :

يسير المجلد الأول (فى البحث) حتى عام ٦١٦ م ، فيصف شباب محمد والسنوات الأولى لظهوره كنبى . أما المجلد الثانى فانه يتناول فى تسعة فصول الفترة الواقعة بين الهجرة الأولى الى الحبشة عام ٦١٦ م حتى الهروب(٦٩) الى المدينة . ويشتمل المجلد الثالث فى البداية على مقدمة ضافية تعرفنا ـ بعد ايراد بعض الملاحظات التمهيدية ـ بالمصادر التى اعتمد عليها المؤلف . فالقرآن نفسه ، وبعض الوثائق القليلة ، وكتاب سيرة محمد ، والسنة ، وتراث الأنساب ، كل ذلك كان يقدم مادة ثرية جدا للمؤلف ساعدته على تأليف كتابه .

والمضمون الحقيقى للمجلد يتكون من ثمانية فصول يتناول فيها ظهور محمد فى المدينة بوصفه مشرعا وفاتحا وحاكما حتى وفاته . ويصاحب كل فصل استطرادات مسهبة . والعرض مستفيض جدا للأسف ، ويشكل « مزيجا غير مستساغ من حكايات وتأملات نقدية » . (فيلهاوزن) .

* * *

(٦٩) هكذا يحلو لكثير من المستشرقين تسمية الهجرة الى المدينة هروبا . ولو كان الأمر أمر هروب لما كان هناك مبرر لأن يظل محمد فى مكة حوالى ثلاثة عشر عاما منذ بدء الدعوة يتعرض فيها هو وأصحابه لأقسى ألوان التعذيب والاضطهاد والحصار والتجويع . ولو أراد أن يهرب لفعل ذلك قبل الهجرة بسنوات ، وبخاصة بعد موت خديجة وعمه أبى طالب الذى كان يحميه من غدر المشركين . فالأمر لم يكن اذن يتعلق بارادة محمد صلى الله عليه وسلم فى تحديد الموعد الذى يترك فيه أحب بلاد الله الى نفسه مهاجرا الى المدينة أو غيرها من بلاد الله ، ولكنها ارادة الله ، ولم يكن له الا أن يمتثل لأمر الله .

٨ ـ نولدكه (Nöldeke) :

لقد جاءت فترة الستينات من القرن التاسع عشر ـ وهى فترة تعد ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبحث فى حياة محمد ـ جاءت بعرض شعبى ممتاز لحياة محمد كتبه مؤلف « تاريخ القرآن » . ويعبر نولدكه(٧٠) نفسه فى المقدمة عن الغاية من كتابه ، كما يعبر كذلك عن موقفه من أسلافه فيقول :

« على الرغم من البحوث التى أجريت بحماس بالغ فى العشرين سنة الأخيرة عن محمد وعن أصل نشأة الاسلام ـ وأخص بالذكر هنا فقط تلك المؤلفات الرائعة لكل من فايل وكوسان دى برسيفال وموير واشبرنجر ـ فان مجال البحث لم يختتم اطلاقا ، ولهذا فانى مع ذلك كله أعتقد بأن عرضا شعبيا لتاريخ محمد مرتكزا على المصادر يعد عملا مناسبا للعصر وأمرا مشكورا . وقد تجنبت عن عمد كل المناقشات العلمية وكذلك كل المجادلات ، ولم أذكر من الاقتباسات الا حوالى ستة اقتباسات فقط . ومع ذلك فانه يصح لى أن أؤكد أن عملى يستند تماما على بحثى الخاص للمصادر . والأسس العلمية لهذا العمل هى فى جوهرها تلك الأسس التى ترتكز عليها الفصول الأولى من كتابى « تاريخ القرآن » .

وقد وضعت أمام عينى أولا أمثال هؤلاء القراء الذين لا يعرفون اللغة العربية ، ولكنى آمل على الأقل أن تكون بعض الآراء ووجهات النظر المطروحة هنا مثار اهتمام المستشرقين أيضا . وقد أوليت الأحوال السياسية والشعبية قدرا خاصا من الاهتمام ، وأفادتنى فى ذلك بصورة أساسية دراستى الطويلة والمتواصلة للشعر العربى القديم . وهناك قصور يجب أن أعترف به ويتمثل فى عدم الدقة فى الترتيب الزمنى للسنين العشر الأخيرة من حياة محمد . ولم أستطع أن أستخدم من مؤلف اشبرنجر العلمى الا القسم الأول فقط عند كتابة هذا الكتاب . ويمتاز مؤلف اشبرنجر بعمقه وحدة ذكائه وعرضه الطريف ، ولكنى كثيرا ما اضطررت أيضا الى أن أخالف آراءه » .

---

(٧٠) تيودور نولدكه (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠) مستشرق ألمانى معروف، كان أستاذا للغات الشرقية فى عدد من الجامعات الألمانية ، له انتاج غزير فى مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربى واللغات السامية والدراسات الاسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » فى هانوفر بألمانيا عام ١٨٦٣ .

ويقع كتاب نولدكه فى سبعة فصول (على النحو التالى) :

١ ـ المقدمة . حياة محمد حتى ظهوره النبوى .
٢ ـ من الظهور النبوى لمحمد حتى هروبه الى المدينة .
٣ ـ من الهروب حتى موقعة أحد .
٤ ـ من موقعة أحد حتى حصار المدينة .
٥ ـ من حصار المدينة حتى الاستيلاء على مكة .
٦ ـ من الاستيلاء على مكة حتى موت محمد .
٧ ـ أخلاق محمد .

وفى تقديره وحكمه على محمد يجتهد نولدكه فى أن يتم ذلك فى موضوعية هادئة على العكس من طريقة اشبرنجر الذاتية والحادة . ولكى يكون المرء منصفا لمحمد فانه يتحتم عليه أن ينظر اليه فى حياته ليس فقط بوصفه نبيا وواعظا وأميرا ، بل ينظر اليه أيضا فى تعامله مع اتباعه وأصدقائه وفى حياته اليومية . فهناك ملامح ثابتة لا تحصى تظهره هنا فى ضوء جميل . أما ما يتعلق بأخطائه فانه يجب على المرء أن يفكر فى أن هذه الأخطاء كانت فى قدر كبير منها أخطاء عصره وشعبه ، وانه كان يبدى بجانب ذلك شمائل على أقصى درجة من النبل ، وأنه هو نفسه كان مقتنعا بمهمته لانقاذ اخوانه فى الانسانية من العذاب الأبدى عن طريق هدايتهم الى العقيدة الصحيحة ، ولجعلهم مشاركين فى السعادة السماوية .

* * *

٩ ـ كريل (Krehl) :

بعد التراجم الكبيرة والعميقة لحياة محمد من جانب كل من فايل وكوسان دى برسيفال وموير واشبرنجر ونولدكه طرأت حالة من الركود فى البحث (فى هذا المجال) . ثم جاءت الثمانينات من القرن التاسع عشر مرة أخرى بكتابين كبيرين عن حياة محمد ظهرا متتابعين بفارق زمنى قصير وقام بتأليفهما لودولف كريل(٧١) . وأوجست موللر .

---

(٧١) لودولف كريل (١٨٢٥ ـ ١٩٠١) مستشرق ألمانى . ساعد فى نشر الجزأين الأولين من كتاب نفح الطيب للمقرى . ونشر ثلاثة أجزاء من الجامع الصحيح للبخارى . أما كتابه عن « حياة محمد » فقد صدر فى ليبتزج بألمانيا عام ١٨٨٤ .

ويحاول كريل ان يبحث بصفة رئيسية التطور الدينى لمحمد عن طريق الأحداث السياسية . ويسعى جاهدا فى أن يكون محايدا بقدر الامكان فى هذا البحث . ويعترف شاكرا بأن دراسة الكتب الكبرى لعلم الحديث ، مثل دراسة صحيحى البخارى ومسلم ـ اللذين يشتملان على الكثير الذى لا يحصى من الملامح المميزة جدا لمحمد وأقواله الثابتة بطرق جيدة ـ هذه الدراسة قد ساعدته فى بحثه بصورة أساسية .

ومع أنه يعلم يقينا أن هذه المأثورات غالبا ما اصطبغت بأغراض لصالح محمد الا أنها رغم كل ذلك تظل فى رأيه مصدرا رئيسيا لحياة محمد . وبناء عليها يظهر مؤسس الاسلام فى ضوء آخر ، وهو ضوء أفضل الى حد بعيد . ومع كل أخطائه يجب أن يعترف المرء بأن محمدا هو مؤسس المدنية العربية ، وأنه قد وضع شعبه تماما وبلا جدال على درجة عليا من الدين . « وان متحمسا دجالا ومرائيا وانسانا يقوده طموحه الأنانى فقط لم يكن له أن ينجح فى ذلك بكل تأكيد . فالقوة التى بناها كانت سرعان ما تنهار بالتأكيد مرة أخرى بعد موته اذا لم تكن قد بنيت على فكرة عليا وعلى تعاليم لا تزال تشغل اليوم فكريا وروحيا ملايين الناس وترضيهم بطريقتها ، وجاء على اثرها عبر القرون تراث واسع المدى جدا والى حد ما غنى بالأفكار ويشهد بثقافة عقلية عالية » .

أما القسم الثانى (من كتاب كريل وهو : التعاليم) فلم ينشر ، ولكن المخطوط موجود ضمن ما خلفه كريل . وهناك فقط بعض النقاط الجزئية للتعاليم (الاسلامية) تناولها كريل بالبحث وقام بنشرها (ص ٢٦١ وما بعدها)(٧٢) .

* * *

١٠ ـ أوجست موللر (A. Müller) :

قام أوجست موللر(٧٣) فى اطار عرضه الشامل للاسلام بتقديم

---

(٧٢) يشير بفانموللر فى ص ٢٦١ الى هذه البحوث التى نشرها كريل ، وأهمها بحث عن « عقيدة القضاء والقدر فى القرآن وصلتها بعقائد الاسلام الأخرى » وبحث عن عقيدة الألوهية وبحث عن خصائص العقيدة فى الاسلام .

(٧٣) أوجست موللر (١٨٤٨ ـ ١٨٩٢) مستشرق ألمانى . كانت رسالته للدكتوراة عن امرىء القيس ، وكان يطلق على نفسه أيضا =

عرض لحياة محمد أيضا ينبنى على معرفة عميقة بالمصادر الأصلية ، ويتضمن حكما موزونا تماما على محمد . وبالمعنى التاريخى الخالص ـ كما يقول ـ يكون من الصعب على المرء أن ينكر على محمد اسم النبى . حقا لا يستطيع المرء أن ينكر أنه كان واقعا تحت حالات عصبية مختلفة نتيجة لمزاجه الذى كان سريع الانفعال بطريقة غير عادية ، وقد ارتفعت هذه الحالات فى بعض الأحيان الى درجة الهلوسة . ولكن هذه الحالات لم تكن أبدا ذات طبيعة صرعية ، بل كانت تتلاءم أيضا مع الانفعالات العصبية المعروفة (التى تعترى) الأشخاص من ذوى الحس المرهف دينيا . ولكن قدرته الكاملة على التمييز بصفة خاصة لم تكن تعانى تحت (وطأة) هذه الحالات . ولا يستطيع المرء أيضا أن يشكك فى اخلاصه الكامل فى الفترة المكية .

واذا كان المرء لا يستطيع أن ينكر على محمد صفة نبى حقيقى فان موللر له مع ذلك بعض التحفظات . فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك الا جانبا واحدا فقط من الطبيعة الالهية ، رأنه ينقصه تماما مفهوم القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكيل عميق بطريقة ما لفكرة نظام أخلاقى للحياة . ثم يصدمنا لدى محمد فى المدينة على وجه الخصوص أنه قد حول الدين الى السياسة فى تزايد مستمر : فقد استعان بالكذب لكى يفرض الحقيقة ، وربما كان ذلك فى البداية دون وعى ، ثم بنصف وعى ، وفى النهاية بوعى كامل(٧٤) !

= اسم امرىء القيس بن الطحان . كان أستاذا للعربية فى جامعة فيينا له دراسات فى الأدب العربى والفلسفة واللغة وله جهود فى نشر وتحقيق وترجمة بعض الكتب العربية . وقد صدر كتابه عن « الاسلام فى الشرق والغرب » فى برلين عام ١٨٨٥ . (راجع : المستشرقون للعقيقى ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها) .

(٧٤) يحاول أوجست موللر هنا تطبيق مفاهيم المسيحيين وتصوراتهم وهذا أمر ليس له ما يبرره على الاطلاق . فالدين من حيث هو دين ليس هو حول الطبيعة الالهية والقداسة وعزل الدين عن السياسة على الاسلام . ـ يقينا ـ ذلك المفهوم الأوروبى المسيحى . واذا كانت الأفهام المسيحية قد حولت المسيحية الى هذه الصورة التى نعرفها والتى استخلص منها موللر مفاهيمه فان الاسلام قد جاء بتصحيح هذه التصورات واعادة الأمور الى نصابها الصحيح .

وقد استخدم موللر فى كتابته لقسمعظيم من تطـور تعاليم محمـد المدونـات التـى كانت تحت تصرفه من مخلفات صـــديقه (أوتو لوت Otto Loth) الذى كان أستاذا فى ليبتزج وتوفى للأسف مبكرا ٠

* * *

١١ ـ هوبرت جريمه (H. Grimme) :

اما كتاب حياة محمد الذى كتبه هوبرت جريمه(٧٥) واعقبه بعد ذلك بثلاث سنوات بالقسم الثانى الذى يشتمل على مقدمة فى القرآن ونسق علم الالهيات القرآنى (انظر ص ٢٠٠) ـ فانه يعد جهدا مستقلا جدا فى مقابل المأثورات العربية ، وكذلك فى مقابل المؤلفات الأوروبية فى السيرة ٠ وقد استند بصفة عامة على مادة المصادر المنشورة ، ولكنه اتبع ـ لدى استخدامه لهذه المـادة ـ الى حد ما طريقة أخرى غير تلك التى اتبعهـا غالبية أسلافه ، وبذلك توصل فى الغالب الى نتائج مختلفة تماما عما توصلوا اليه ٠

ويرى جريمه على وجه الخصوص ان من الضرورى اتخاذ موقف اكثر حذرا من الأحاديث ٠ صحيح أن مجموعات الأحاديث التى ترجع الى زمن أقدم من غيرها بوجه خاص تشتمل على كثير مما هو حقيقى ولا غنى عنه لتاريخ محمد ، ومن المؤكد كذلك أن التزييف المتعمد لم يعمل عمله بمثل هذه الجراة فى اى مجال من مجالات الأدب مثلما فعلهنـا فى هذا المجال ٠ ولكن المرء لا يزال بعيدا عن التوصل الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف(٧٦) ٠

---

(٧٥) هوبرت جريمه (١٨٦٤ ـ ١٩٤٢) مستشرق ألمـانى ٠ كان أستاذا للغات الشرقية فى (مونستر Münster) بألمـانيا ٠ ومن مؤلفاته : « محمد » فى جزئين ٠ وله دراسات حول اسم محمد ، واصـــول ديانة محمد ، والأهميـــة التاريخية العالمية لبلاد العرب فى عصر محمد ، والاسلام واليهودية وغيرها ٠

(٧٦) اذا كان جريمه وأمثاله لم يستطيعوا أن يتوصلوا الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف من الأحاديث فان علماء المسلمين قـد توصلوا الى ذلك منذ قرون ، وفى مقدمتهم أصحاب الكتب الستة الصحيحة التى أجمع المسلمون منذ ذلك الزمن البعيد على حجيتها والاعتداد بها ٠٠

OBEIKAN.COM

وفضلا عن ذلك فان مجموعات الأحاديث عالبا ما تقدم كثيرا جدا من الأمور التى لا أهمية لها . وأخيرا فانها لا تقدم الا روح الحقبة المدنية ولكنها لا تقدم اطلاقا روح الحقبة المكية(٧٧) . ولكن من حسن الحظ انه لا يزال يتدفق هناك مصدر قوى للحقيقة التاريخية فى القرآن . وقد حاول المؤلف أن يستخدم القرآن بشكل مثمر تماما . ولكن هناك أمورا كثيرة تحمل هنا أيضا على الحذر . فمن الأمور التى لا تزال مثار جدل بوجه خاص قضية الترتيب الزمنى للسور القرآنية . ومن أجل ذلك يقدم المؤلف فى القسم الثانى فصلا خاصا عن « شكل السور القرآنية وتتابعها الزمنى » ويصل فيه الى بعض النتائج المخالفة(٧٨) .

ويذهب جريمه الى القول بأن محمدا كان فى المقام الأول مثيرا للفتن أو محرضا (Agitator) ذكيا وسياسيا كبيرا . وفى المدينة تطور محمد ـ حسب رأى جريمه ـ فى تزايد مستمر الى دجال عن وعى بذلك(٧٩) . ولكن الأمر الجديد تماما هو دعوى جريمه بأن محمدا عند ظهوره الأول (بدعوته) لم يكن يدعو الى دين اطلاقا ، بل كان يدعو الى شكل من أشكال الاشتراكية . فالاسلام « لم يظهر اطلاقا بوصفه نسقا

---

(٧٧) هذا كلام غير صحيح . فهناك أحاديث كثيرة من الفترة المكية . وقد عالجت مسائل العقيدة والأخلاق والحض على الصدقة وتناولت فريضة الصلاة وقصة الاسراء والمعراج وتحريم الخمر والزنا والربا وغير ذلك من موضوعات .

(٧٨) يثير المستشرقون منذ زمن طويل قضية الترتيب الزمنى للسور القرآنية ، ولهم فى ذلك وجهات نظر متعددة ، والأمر الذى عليه المسلمون هو أن هذه القضية توقيفية لا تخضع للاجتهاد البشرى . والنبى صلى الله عليه وسلم لم يترك الأمر فى ذلك للأهواء والأغراض ، بل حسمه بتوجيه الهى تم بناء عليه ترتيب الآيات والسور على النحو المعروف فى المصحف .

(٧٩) لسنا هنا فى مقام الدفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم . فهو ليس فى حاجة الى دفاع . وهذا السباب لا يصيب الا أصحابه كما سبق أن قال توماس كارليل . وقد كان عليه الصلاة والسلام كما وصفه القرآن « **شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا** » (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) ؛ وهو القائل : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » . ومن ناحية أخرى فقد سبق أن أشرنا مرارا الى قضية السياسة والدين وأنه لا انفصالية بينهما كما تذهب الى ذلك العلمانية الغربية التى يراد تقويم الاسلام من خلالها .

دينيا فى الحياة ، وانما بوصفه محاولة لشكل من أشكال الاشتراكية ليواجه ما كان سائدا الى حد بعيد من أحوال أرضية سيئة معينة »(٨٠) .

وقدكان التناقض المخيف بين الأغنياء والفقراء ـ والذى كان سائدا فى مكة ـ هو الذى دفع محمدا الى المطالبة بضرورة أن يدفع كل فرد ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . ولكى يجد محمد آذانا صاغية لهذه الدعوة استخدم عقيدة يوم الحساب كوسيلة اجبار روحية .

* * *

١٢ ـ سنوك هورجرونيه (Hurgronje) :

وقد عارض هذا الرأى فى محمد سنوك هورجرونيه فى مقالة مسهبة فى « مجلة تاريخ الأديان » . وقد تضمنت هذه المقالة تفنيدا رائعا لرأى جريمه . فكل كتاب سيرة محمد من الأوروبيين تصوروا ـ كما يقول هورجرونيه فى اعتراضه ـ أن محمدا قد شعر وهو فى سن الأربعين بأنه مدفوع لدعوة قومه الى دين . وأحد هؤلاء الكتاب قد أراد أن يعطى الانطباع بأن هذا الدين كان بالنسبة لمحمد مجرد وسيلة للوصول الى السلطان والنفوذ فحسب . وقد ذهب « موير » الى القول بأن محمدا كان أداة من أدوات الشيطان ، ولكنه مع ذلك اعترف بأن هذا الشيطان قد ظهر لمحمد فى صورة رسول الهى . وبالنسبة لاشبرنجر كانت دعوى الهستيرية هى التى خدمته لكى يوضح أن محمدا كان ظاهرة دينية . وأخيرا فان المؤرخين من أمثال كارلايل الذين رأوا فى محمد عبقرية فذة ـ كانوا مع كل اختلافاتهم على اتفاق فى اعتباره عبقرية دينية .

والسؤال الكبير الذى يواجه كتاب سيرة محمد من البداية هو : ما أصل الاصطفاء الدينى لدى محمد ومن أين أخذ أفكاره الدينية ؟

ان أفكاره الرئيسية هى ـ مع بعض التغييرات فى الشكل ـ تلك

---

(٨٠) لن نناقش هذه الدعوى المتهافتة . فالواقع والشواهد التاريخية الصحيحة تكذبها تماما ، فضلا عن أنها دعوى لا يوافقه عليها معظم المستشرقين ، ولعل جريمه وحده قد انفرد بها . وقد قام سنوك هورجرونيه بنقضها وتفنيدها كما يتضح ذلك فى الصفحات التالية وان كنا لا نوافق على الأسلوب الذى اتبعه هورجرونيه فى تفصيل رده المشتمل على الكثير من المزاعم الباطلة .

OBEIKAN.COM

الأفكار التى تشترك فيها كل من اليهودية والمسيحية . وفى التفاصيل يبدى وحيه تارة الصبغة اليهودية ، وتارة أخرى الطابع المسيحى ، وتارة ثالثة يبدى أمورا متنوعة لخيال حر نسبيا مبنى على اساس يهودى مسيحى .

ولكن محمدا لم تكن لديه الا معلومات ناقصة وقاصرة عن اليهودية والمسيحية ، فلم يكن يعرف مثلا الكتاب المقدس أو علم العقيدة الأرثوذكسية ، بل كان يعرف فقط الأدب والتراث المشكوك فى صحته (Die apokryphe Literatur) لهذين الدينين (٨١) . وقد كان محمد فضلا عن ذلك رجلا أميا : وهكذا ظلت الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية غريبة عنه . وعن طريق الحديث فقط مع أتباع هذين الدينين نعرف محمد عليهما كما كانا قائمين فى بلاد العرب حينذاك . ويضاف الى ذلك أن من الأمور التى تركت لديه انطباعا خاصا كان فن قراءة النصوص المقدسة أو فن تلاوتها وترتيلها فى صلوات اليهود والمسيحيين ، خاصة وأنه قد سمع الناس يقولون ـ واعتقد (ما يقولون) بلا حدود ـ أن الكتب والألواح التى يقرؤها اليهود والمسيحيون فى صلواتهم والتى تتضمن شرائعهم ومؤسساتهم ليست ذات مصدر انسانى ، بل مصدرها الهى .

ولكن كيف تكون لدى محمد مفهوم الوحى ؟

فى البداية لم يكن محمد يلحظ اطلاقا الموقف العدائى الذى تتخذه

---

(٨١) يحاول سنوك هورجورونيه هنا وفيما يلى من تفاصيل بيان أن الاسلام دين مأخوذ أساسا من اليهودية والمسيحية . وقد كانت المعلومات التى تلقاها محمد عن هذين الدينين معلومات ناقصة وقاصرة نظرا لاعتمادها على مصادر مشكوك فيها . وهذا الاتجاه يكاد أن يكون اتجاها عاما لدى المستشرقين الذين يريدون أن يظهروا الاسلام بمظهر الدين البشرى الملفق من تلك المعلومات التى عرفها محمد عن طريق لقاءاته مع أتباع هذين الدينين . ولكن السؤال هو : لماذا لا يكون الاسلام دينا أصيلا مأخوذا مباشرة من نفس النبع الذى أخذت عنه الديانات السماوية قبل أن تتدخل أيدى البشر لتحريفها ؟ لماذا لا يكون الاسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الوحى الالهى الذى أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية ؟ هل مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحى مبدأ مسلم به أم لا ؟ انه اذا كان هذا المبدأ مسلما به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والمسيحية وتمنعه عن الاسلام ، واذا لم يكن ـ فى عرفهم ـ مبدأ مسلما به فلا مجال للديانات جميعا . (راجع فى مناقشة هذا الموضوع كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ ـ ٧٣) .

الطوائف والكنائس المختلفة من بعضها بعضا . فالفرق بين اليهود والمسيحيين ، ووجود الطوائف والكنائس العديدة التى كانت تعادى بعضها بعضا خارج هذين الدينين ، كل ذلك قد بدا فى التصور الساذج لمحمد أنه يرجع الى اختلاف الأجناس أو القوميات . فقد صور البشرية ـ من حيث أنها تملك نعمة الوحى ـ مقسمة فى « جماعات » يمكن أن تتميز كتبها وألواحها فى الشكل والمضمون ، ولكنها جميعا قد جاءت وحيا من لدن اله واحد وللغاية ذاتها .

وقد تأسست كل جماعة ـ فى رأيه ـ عن طريق انسان اصطفاه الله من بين شعبه وتحمل مهمة دعوة قومه الى كلمة الله بوصفه نبيا ومبعوثا أو نذيرا . وهناك عدد كبير من الأنبياء ، وليس بينهم فرق جوهرى . ولم يكن اصطفاء محمد للعرب ـ فى نظر محمد ـ أمرا مختلفا عن اصطفاء الأنبياء السابقين ، فقد كان كل منهم مختارا لشعبه الذى ينتمى اليه (٨٢) .

وهكذا كان فى وسع محمد أن يفترض بلا عناء أن أتباع الدينين القائمين الموحى بهما يمكنهم أن يعترفوا به بوصفه نذيرا مرسلا من الله للعرب دون أن يلحق ذلك أى ضرر بمعتقداتهم (اليهودية والمسيحية) . ولكن عندما اتصل محمد باليهود فى المدينة اتصالا مباشرا كان لا بد له حينئذ أن يعرف أن اليهود الحقيقيين والمسيحيين الحقيقيين لن يعترفوا اطلاقا بأصالة بعثته الدينية .

ولكن نظرا لأنه من ناحيته كان مقتنعا بشرعية بعثته وكان يعتقد

---

(٨٢) لم يكن ذلك كله اجتهادا من محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كان وحيا تلقاه من ربه عز وجل . وفى هذا الوحى تأكيد على وحدة الأصل البشرى واشارة الى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الناس شعوبا وقبائل لكى يتعارفوا وجعل أكرمهم عنده أتقاهم ، كما أشار الوحى الى أنه ليست هناك أمة الا خلا فيها نذير ، وأن الله قد أرسل الى كل أمة رسولا بلسان قومه . وهناك آيات قرآنية عديدة توضح هذه التضية بجلاء . ثم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عامة للناس جميعا وليس للعرب فقط ـ كما يزعم هورجرونيه ـ . وفى أول اعلان جهرى بالدعوة أعلن محمد صلى الله عليه وسلم أنه أرسل الى العرب خاصة وآلى الناس كافة . وجاء ذلك فى الوحى المكى أيضا فى قوله تعالى : « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** » (سبأ ٢٨) . وفى قوله تعالى « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » (الأنبياء : ١٠٧) .

انها من جنس بعثة موسى وعيسى وأسلافهما ، فقد أدى به ذلك بطبيعة الحال الى نتيجة مؤداها أن اليهود والمسيحيين قد فسروا الوحى الذى لديهم تفسيرا سيئا . وعليه اذن أن يقوم بواجب تصحيحهم ! وتلك مهمة صعبة لمن لم يستطع أن يقرأ كتبهم المقدسة ، وكانت لديه أيضا فضلا عن ذلك مفاهيم مشوشة عن طبيعة هذه الكتب وعن مضمونها(٨٣) .

وفى الفترة الثانية من نشاطه شرع محمد أيضا شروعا حقيقيا فى التعرف بعض الشىء عن قرب على التاريخ التقليدى الموروث للوحى السابق ، وحصل ـ مع بعض التغييرات الضرورية ـ على ما أمكن أن يخدمه فى التحرر من اليهودية والمسيحية اللتين استشهد بهما فى السابق أكثر من مرة على حقيقة بعثته ، ولم يكن فى ذلك الاستشهاد شىء من الحكمة(٨٤) .

ولن نقف عند المراحل الجزئية لعمليه التحرر هذه ، وسنقتصر على اثبات أن محمدا لم يتوصل الى حل المشكلة دفعة واحدة ، بل تم ذلك بالتدريج شيئا فشيئا . ففى حين كان ابراهيم يعد فى الوحى السابق [الذى نزل على محمد] واحدا من أسلاف محمد التعديدين فحسب ، يصبح الآن [بالنسبة لمحمد] رائده ومثله الأعلى على الاطلاق . وقد استمد ابراهيم هذه المنزلة العالية لدى محمد من أمرين توصل محمد الى معرفتهما أولا فى المدينة . الأمر الأول يتمثل فى أن ابراهيم ـ الذى يقدسه اليهود

---

(٨٣) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى حاجة الى قراءة كتب اليهود والنصارى ولم تكن لديه معلومات مشوشة عن تلك الكتب ، لأن الله الذى أنزل التوراة والانجيل هو نفسه الذى أخبر محمدا عن طريق الوحى بما طرأ على هذين الدينين من تحريف وتبديل . وبين له طبيعة هذا التحريف .

(٨٤) ما يقوله هورجرونيه فى كل تفصيلاته حول موضوع علاقة محمد صلى الله عليه وسلم باليهودية والمسيحية مبنى على افتراض أن الاسلام دين بشرى تفتق عنه ذهن محمد صلى الله عليه وسلم . ومن هنا نجد هذا الحرص الشديد على تفسير كل شىء من هذا المنطلق . وبناء على هذا الفرض الذى يعده المستشرقون حجة مسلمة . فالأمر اذن يدور حول رفض مسبق للاسلام بوصفه دينا سماويا . وهذا الرفض ليس له من علاج الا دراسة الاسلام دراسة نزيهة محايدة دون أن تكون هناك أوهام وتصورات أو أحكام سابقة .

والمسيحيون بنفس الطريقة بوصفه رجل الله ـ لم يكن يهوديا ولا مسيحيا(٨٥). وكون محمد قد جعل اصطفاءه مرتبطا ارتباطا وثيقا بتلك الأبوة مكنه من تفادى اتهامات اليهود الذين رموه بأنه لم يراع شريعتهم مراعاة تامة ، واتهامات المسيحيين أيضا الذين عارضوه بعقيدة الخلاص عن طريق المسيح وحده .

أما الأمر الثانى فقد كان يتمثل فى أن محمدا قد عرف أن الكتاب المقدس قد جعل من ابراهيم الأب الأول للعرب . وهكذا كان محمد يميل بطبيعة الحال الى الاستناد الى أبى الجنس الذى ينتمى هو اليه . وقد وصف محمد نفسه من الآن فصاعدا بأنه ذلك النبى الذى جاء لاكمال العمل الذى بدأه الأبوان ابراهيم واسماعيل . فالاسلام الذى دعا اليه محمد كان هو نفسه تماما ذلك الذى دعا اليه ابراهيم . وقد كان ابراهيم ـ الأب الأول للعرب ـ مثل محمد تماما مسلما وحنيفا . ولكن ابراهيم لم يكن بالنسبة لمحمد المحرر من اليهودية والمسيحية فحسب ، فقد خدم النبى الأب محمدا أيضا فى ادخال طقوس العبادة المكية فى الاسلام بعد ان خلصها من بعض المراسم التى تكشف بوضوح عن أصل وثنى .

وكان ابراهيم قد دفع باسماعيل وأمه الى بلاد العرب . وفى وسع المرء اذن أن يفترض أنهما قد جاءا الى مكة وأسسا الكعبة هناك بناء على أمر الهى . وهذا الافتراض يتضمن بطبيعة الحال أن نسل اسماعيل قد افسد بصفة عامة العبادة والدين بطريقة مزعجة .

ان صلات محمد باليهودية والمسيحية ـ كما وصفناها هنا ـ وتاريخ تطور أسطورة ابراهيم فى عقل محمد بصفة خاصة ، كل ذلك يستبعد الآن تماما الرأى الذى يذهب الى القول بأن دعوة محمد قد استندت الى جماعة الحنفاء الذين كانوا من قبله يدعون الى شىء من اليهودية والمسيحية تحت اسم دين ابراهيم(٨٦) .

---

(٨٥) لم يكن ذلك معرفة توصل اليها محمد ، بل كان وحيا قرآنيا جاء فى قوله تعالى : « **ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** »(آل عمران ٦٧) .

(٨٦) لقد ورد ذكر ابراهيم عليه السلام فى القرآن فى تسع وستين موضعا ، منها اثنتان وثلاثون مرة فى آيات مكية وسبع وثلاثون مرة فى آيات

وبعد أن وصف سنوك هورجرونيه صلات محمد باليهودية والمسيحية يطرح السؤال عن الدافع المحدد لبعثته النبوية

لقد كان المرء فى السابق يرى بطريقة عامة أن محور دعوة محمد يتمثل فى كفاحه ضد الوثنية لصالح (عقيدة) التوحيد الصارم.ومن المؤكد – كما يرى سنوك هورجرونيه – أن وحدة الله كانت تمثل أحد الأعمدة الرئيسية للاسلام ، وقد نالت هـذه العقيدة فيما بعـد أهمية متنامية باستمرار . ولكن الحماس للدفاع عن الوحدة الالهية ضد الوثنية وضد التثليث الخ لم يكن بالنسبة لمحمد هو الدافع المحدد لبعثته النبوية . فقد كانت هناك بالأحرى منذ البداية فكرة احتلت مكان الصدارة من تفكيره وسلوكه وهى فكرة يوم الحساب . فالأمر الذى كان يقلقه هو الاقتناع بأن الناس جميعا سوف يضطرون فى يوم من الأيام للمثول أمام الله للحساب وأنه لن يكون أمامهم مخرج آخر غير باب النار أو باب الجنة(٨٧) .

=

مدنية . وقد جاء الأمر باتباع **ملة ابراهيم** أولا فى أية مكية فى قوله تعالى : « **ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا** » (النحل : ١٢٣) ، وتكرر هذا المعنى فى أكثر من آية مدنية ، مثل قوله تعالى : « **ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل** » (الحج : ٧٨) ، وقوله تعالى : « **قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه** » (الممتحنة : ٤) . أما بناء الكعبة فقد تم على يد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، كما ورد فى ذلك فى قوله تعالى : « **واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل** » (البقرة : ١٢٧) .

ويريد هورجرونيه كعادة غالبية المستشرقين أن يصور علاقة محمد بابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأنها أسطورة كانت تدور فى عقل محمد صلى الله عليه وسلم انطلاقا من زعمه الباطل بأن القرآن ليس وحيا حقيقيا من عند الله .

(٨٧) الايمان بالله الواحد الذى لا شريك له مرتبط ارتباطا وثيقا بالايمان باليوم الآخر . والقرآن الكريم يربط باستمرار بينهما . فالايمان باليوم الآخر ينبنى على الايمان بالله ، ولا يتصور ايمان باليوم الآخر دون الايمان بالله . يقول الله تعالى : « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ...** » (البقرة : ١٧٧) . وقد ورد تعبير الايمان باليوم الآخر مسبوقا بالايمان بالله فى كل المواضع القرآنية التى ذكر فيها اليوم الآخر .

وقد كانت هناك فكرتان تتنازعان فى عقله على السيطرة : فمن ناحية كانت هناك فكرة محكمة عامة للناس جميعا بعد بعث الأموات ، ومن ناحية اخرى كان هناك الخوف من المحاكمات الجزئية التى تتعرض لها من عصر الى عصر الشعوب التى تتمرد على رسل الله . وقد كانت هـذه الأفكار المتمثلة فى الكارثة النهائية وبعث الأموات والحساب والنار والجنة هى التى دفعت محمدا الى انعام الفكر والى النبوة . وقد عرضت أقدم الآيات القرآنية هـذه القضايا باثارة عاطفيـة تكاد أن تكون فى صورة وحشية . وقد اتخذت هـذه القضايا فيما بعد أشكالا أكثر ثباتا وأكثر تقليدية . وأخيرا عندما أصبح النبى على رأس جماعة تحتم عليه أن يقوم بتنظيمها ، وعنـدما توقف الصراع ضد الكفار فى محيطه ـ ظلت عقيدة العالم الآخر عنصرا أساسيا من عناصر الاسلام . ولكن التصوير المثير للعواطف بشأن يوم الحسـاب لم يعد يظهر فى الوحى المحمدى الا نادرا (٨٨) .

ان فكرة المحكمة الالهية ، التى كانت فكرة مشـتركة بين اليهود والمسيحيين . قد أرقت محمدا وأقضت مضجعـه اذن منـذ البـداية . ولكن اليهود والمسيحيين كانوا قد عرفوا عن طـريق الوحى يقينية يوم الحساب ، وليس هـذا فحسب ، بل عرفوا أيضا الأوامر التى أعطتهم

---

(٨٨) لم تكن هذه أفكار تتنازع فى عقل محمد كما يزعم هورجرونيه ، وانما كانت وحيا من عند الله . أما كون الحـديث عن البعث والحسـاب والجنة والنار الخ . قد جاء فى البداية فى صورة تثير العواطف وتهز القلوب فذلك يرجع الى أن القلوب كانت فعلا فى حاجة الى هذه الاثارة العاطفيـة نظرا لتحجرها وجمودها وانغلاقها . وقد سجل الوحى المكى ذلك فى قولـه تعالى : « **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهـم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل** » (الاعراف : ١٧٩) . ومن هنا كان حديث القرآن عن نهاية العالم ويوم القيامة بأوصاف الزلزلة والقارعة والراجفة والصاخة والطامة الكبرى وغير ذلك من أوصاف أخرى مماثلة . وبعد أن فتح الله القلوب الغلف والآذان الصم والأعين العمى ودخل الناس فى دين الله أفرادا وجماعات لم يكن القرآن فى حاجة الى تكرير نفس الأسلوب فلكل مقام مقال ، ولكن هذا الأسلوب سيظل أيضا قائما فى كل العصور للقلوب التى يصيبها الوهن وللعقول التى يعتريها الغرور وللنفوس التى يطرأ عليها النسيان . فيكون علاجا ناجعا مستمرا لأمراض القلوب .

مراعاتها اليقين بأنهم سيكونون من الناجين فى يـوم الحسـاب . (اما العرب فلم يأتهم نذير) « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك »(٨٩) .

ولم تكن المسـاواة التى أقرها محمـد بين الشـعوب أو الأجناس والطوائف الدينية تسمح له بالاعتقاد بأن وحيا من هـذا الوحى السابق (فى اليهودية والمسيحية) كان مقررا لشعبه او مقررا له هو . فكيف اذن يتجنب محمد وقومه العذاب المقيم ؟

لقد أجابت عن هـذه القضية الحياتية (المصيرية) آيات القرآن التى ينظر اليها بالاجماع على أنها أقدم الآيات سواء من جانب المسلمين الأصوليين أو من جانب النظرة النقدية أيضا .

فاذا أراد المرء أن يعتبر محمدا انسـانا قد أوحى اليه حقا من عند الله ، أو اذا أراد المرء أن يعتبر أنه قد أعطى له حد أدنى فقط من الروح النبوى ، أو اذا أراد أن يعتبر أن الشيطان قد تلبسه او أنه انسان هستيرى أو مصاب بالصرع ، فان الأمر الذى لا جدال فيه أنه كان لديه المزاج العقلى الخـاص الذى يدفع أناسا معينين الى انعام الفكر وتعذيب أنفسهم بمسائل دينية الى أن يجدوا حلا لها . ولم يكن هناك فى المـاضى (بالنسبة لمحمد) أحد من رجال الله استطاع أن يجيب عن الشدة والمعاناة التى أقضت مضجع محمد بوحى يشتمل على الحقيقة الواضحة عن البعث ويوم الحساب . والأمر الأقل من ذلك بكثير أنه لم يكن هناك أحد من أمثال هؤلاء بين معاصريه . وقد أتى اليه الخلاص من أعلى ! وقد كان هو نفسـه معينا من قبـل الله لاخراج قومه من الظلمات الى النور !

واذا كان سنوك هورجرونيه قد أثبت بذلك أن فكرة يوم الحساب كانت تحتل مكان الصدارة فى دعوة محمـد فانه بذلك يكون قد قام بنقض دعوى جريمه التى تتمثل فى القول بأن محمـدا قد ظهر أولا بوصـفه من قبيل المصلحين الاشـتراكيين . وعلى الرغم من ذلك فان سنوك هورجرونيه يخصص فصلا أخيرا مستفيضا لمناقشة هـذا السؤال : هل كان محمـد اشتراكيا ؟

---

(٨٩) القصص : ٤٦ .

وفى البداية يقدم هورجرونيه اعتراضين عامين (ضد دعوى جريمه) :

١ ـ كيف لم تتجه معارضة المكيين على الاطلاق ـ بناء على شهادة القرآن القاطعة ـ ضد الزكاة التى كانت فى رأى جريمه فى مقدمة دعوة محمد ، بل اتجهت المعارضة باستمرار وفى المقام الأول ضد عقيدة البعث ويوم الحساب ؟

٢ ـ هل كان محمد ـ فضلا عن ذلك ـ يدعو الى عقيدة يوم الحساب فقط لكى يجبر المكيين البخلاء على دفع الزكاة ـ حسب رأى جريمه ـ ؟

الم يكن فى وسع محمد أن يجد لذلك حينئذ وسيلة أفضل من تلك العقيدة التى لم يكن المكيون يؤمنون بها ، وهى عقيدة يقول عنها جريمه نفسه انها كانت أكثر النقاط ضعفا فى الاسلام الأصلى !

وحقيقة الأمر هى أن فرض الزكاة قد ذكر مع أمور أخرى دون أن تضاف اليه أهمية خاصة !

وهكذا يتضح من هذه النظرة العامة بطلان رأى جريمه(٩٠) . ولكن هناك أسبابا خاصة تضاف الى ذلك : فكلمة الزكاة التى ترجمها جريمه **بالضريبة (Steuer)** لم تكن تعنى اطلاقا معنى الضريبة فى العصر الأول للاسلام قبل الهجرة ، بل كانت تعنى ممارسة اختيارية لفضيلة « البر والاحسان » . وقد تم بعد الهجرة فرض « ضريبة » معينة ، ولكن محمدا لم يكن يستخدم هذه الايرادات للتخفيف من عنت الفقراء ، بل كان ينفق منها وقت الحاجة على حملاته الحربية . وقد أصبحت هذه « الضريبة » أولا نظاما دائما فى عهد أبى بكر وأضحت « عمودا » من أعمدة الاسلام ، وأسهمت اسهاما كثيرا فى انتشار القوة الاسلامية(٩١) .

---

(٩٠) لايعجب المرء من مثل هذه التحليلات التى لا يكل معظم المستشرقين عن الجرى وراءها وعرضها بشتى الأساليب فى طلاء علمى زائف ، فهدفهم الرئيسى وشغلهم الشاغل هو محاولة طمس حقيقة الدين الاسلامى ، وأنى لهم أن يبلغوا هدفهم أو يصيبوا منه شيئا « **يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** »(الصف : ٨) .

(٩١) منذ أن فرضت الزكاة فى السنة الثانية للهجرة وهى تمثل أحد الأعمدة التى يقوم عليها بنيان الاسلام . وما فعله أبو بكر رضى الله عنه =

وتعد « فضيلة البر والاحسان » فضيلة شرعية عامة ، وقد امتدحها اليهود والمسيحيون بوصفها فضيلة أساسية . ولكن القرآن يشهد فى بعض آياته بأن محمدا قد جعل من هذه الرؤية (العامة) رؤية خاصة به(٩٢) . وفضلا عن ذلك فانه اذا كان محمد قد دعا منذ البداية الى الزكاة بمعنى « الضريبة » ، واذا كان ـ كما يريد جريمه ـ قد جعل من هذه الضريبة منذ البداية فصاعدا العنصر الأساسى لدعوته ، فحينئذ يحق للمرء أن يعجب جدا لأن التراث المحمدى كله لا يعرف شيئا من مثل هذا النظام (الضريبى) فى بداية الاسلام ، وليس هذا فحسب ، بل ان مما يثير الدهشة أيضا أن المحمديين قد ضللوا عن قصد عمر هذه « الدعامة » من دعائم دينهم لأنهم بصفة عامة قد حددوا زمن فرض مثل هذه « الضريبة » أولا بعدالهجرة .

وعلاوة على ذلك فانه لا يوجد فى الوحى المكى وصف لهذا الشكل من أشكال الضريبة ، ولا يوجد بيان من النبى عن الطرق المفروضة لجمع واستخدام هذه الضريبة ، وليس هناك أيضا أقل القليل من الاشارة أو التلميح لهذا النظام (الضريبى) . وقد وضع التراث المحمدى توقيت نظام « الضرائب » الحكومى بوضوح فى وقت متأخر (أى بعد الهجرة) .

وأخيرا كان يجب أن يكون مثل هذا الاجراء ، وهو الدعوة الاشتراكية لفرض ضريبة من الضرائب ، ناتجا من الظروف الكلية لمدينة مكة بوصفه نتيجة حتمية . ولكن هذا أيضا لم يكن هو الحال . صحيح

=
لم يكن الا اقرارا وتأكيدا لذلك ودفاعا عنه . ومن هنا كان قوله بصدد مانعى الزكاة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليه». أما مصارف الزكاة فقد حددها القرآن الكريم فى آية مدنية فى قوله تعالى : « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله، والله عليم حكيم** » (التوبة : ٦٠) .

(٩٢) البر اسم جامع للخير ولكل فعل مرض ، ويدخل فى ذلك بطبيعة الحال الانفاق فى وجوه الخير . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** » (آل عمران : ٩٢) . وقد حث القرآن على البر فى العديد من الآيات مؤكدا ما لهذه الفضيلة من أهمية بالغة فى حياة المؤمن .

أن التناقض بين الغنى والفقر كان قائما ، ولكنه لم يكن (فى مكة) أسوأ مما كان قائما فى أى مدينة أخرى .

ويضاف الى ذلك أن محمدا كان يدعو فى مكة باستمرار الى الصبر والتحمل السلبى وأنه لم يتحول من الدفاع الى الهجوم الا بعد الهجرة الى المدينة . وقد كان هذا اذن فى الوقت الذى اختفت فيه دعوته الاشتراكية ـ حسب رأى جريمه ـ وحلت محلها عقيدة دينية ميتافيزيقية .

وهكذا يتضح أن الفرضية الجديدة عن محمد الاشتراكى ـ التى قال بها جريمه ـ لا تتفق بأى شكل من الأشكال مع الوقائع ولا يمكن البرهنة عليها بأى حجة تاريخية أو غيرها من حجج أخرى . ولكن فيما عدا ذلك فان سيرة محمد لجريمه لا تختلف بأى حال عن المؤلفات السابقة ، غير انه قد تخللتها فى أماكن عديدة مزاعم جريئة ، الأمر الذى يعد آفة من الآفات لمؤلف من المؤلفات الشعبية . ولو كان قد قدم خلاصة دقيقة للعمل الذى بذل حتى الآن (فى مجال كتابة السيرة) لكان يمكن أن يكون ذلك أكثر ملاءمة بالنسبة لهذه الغاية .

أما القسم الثانى من سيرة محمد لجريمه ، والذى ظهر بعد القسم الأول بثلاث سنوات ، فانه يشتمل على « مقدمة فى القرآن » تناول فيها باختصار تاريخ نشأة القرآن وشكل السور القرآنية وتتابعها الزمنى . ولكن المضمون الأساسى لهذا المجلد يشكل « نسق علم العقيدة القرآنى » والذى سنعود للحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عن « تعاليم محمد » (ص ٢٠٠)(٩٣) .

وهناك قصور فى هذا الكتاب يتمثل فى أن جريمه لم ينتفع من الأحاديث الصحيحة التى تقدم تصورا أكثر حيوية وأكثر تنوعا لروح الاسلام مما يقدمه القرآن الذى يدحو فى معظمه نحو التجريد(٩٤) .

---

(٩٣) هنا احالة الى ص ٢٠٠ من كتاب بفانمولر حيث يعرض بالتفصيل لما تضمنه كتاب جريمه من حديث عن علم العقيدة القرآنى .

(٩٤) علاقة السنة بالقرآن علاقة وثيقة ، فهى ـ كما يقول الامام الشاطبى : « راجعة فى معناها الى الكتاب ، فهى تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره » ولا تجد فى السنة أمرا الا والقرآن قد دل على معناه دلالة اجمالية أو تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وانما هى مفسرة له وشارحة لمعانى أحكامه . (راجع الموافقات للشاطبى ج ٤ ص ١٠ ـ ١٢) .

واذا كانت فكرة الاشتراكية تحتل مكان الصدارة فى هذا الكتاب الذى يقع فى مجلدين عن سيرة محمد ، وهى فكرة قام سنوك هورجرونيه بتفنيدها ببراعة ـ فان حديث جريمه عن محمد فى كتابه « تاريخ العالم فى صور مميزة » يأتى بفرضية جديدة يحاول اثباتها وهى الأصل العربى الجنوبى لأفكار محمد الدينية . ومن أجل هذا الغرض خصص النصف الأول كله من دراسته لبحث التاريخ الأقدم لبلاد العرب . وهنا نتعرف على التاريخ السياسى والحضارى لبلاد العرب القديمه الشمالية والجنوبية .

والآن فان الاقتباس من جنوب العرب لا يعد فقط أمرا محتملا ، بل هو أمر راجح الى أقصى حد . أجل ، فهناك فى عبادة الاسلام ، على كل حال أمور كثيرة مما كان فى بلاد العرب القديمة بقدر أكثر مما كان يفترضه المرء فى العادة .

ولكن الأمر الذى يعد بعيد الاحتمال جدا هو أن تكون التأثيرات العربية الجنوبية وحدها هى كل شىء . فالأحرى أنه لا يجوز التغاضى عن التأثيرات اليهودية والمسيحية والفارسية . ويضاف الى ذلك أن مكة كانت مدينة لها صبغة عالمية لدرجة كبيرة ، ومن ناحية أخرى كان ظهور محمد أمرا غير عادى الى حد كبير(٩٥) .

ومن الطبيعى أن تتوقف التأثيرات العربية الجنوبية بالهجرة (الى المدينة) ، ومن هذه اللحظة فصاعدا فقد جريمه أيضا كل اهتمام بالتطور الدينى لمحمد . فكل شىء بعد ذلك يعد بالنسبة لجريمه مناورة سياسية لدجال امتهن الدين من أجل غايات دنيوية . وقد كان هذا الرأى عن محمد

---

(٩٥) الديانات السماوية تختلف فى طبيعتها عن الديانات البشرية . فهذه تخضع لمنطق التأثير والتأثر . ومن هنا يمكن البحث عن أصولها وفروعها فى حضارات وديانات قديمة . أما الديانات السماوية القائمة على الوحى الالهى فلا تخضع لهذا المنطق . وما يبدو فيها من تشابه يرجع الى وحدة الأصل الالهى . والوحى اللاحق يصحح ما طرأ على الوحى السابق من عناصر غريبة . وقد بين القرآن ـ وهو النص الدينى الذى لم تنله يد التحريف والتبديل باعتراف كثير من المستشرقين وعلى رأسهم رودى بارت صاحب أحدث ترجمة ألمانية للقرآن ـ بين ما طرأ على اليهودية والمسيحية من تصورات لم يتضمنها الوحى الأصلى ولا صلة لها بالوحى الحقيقى . ومنذ أن كشف القرآن عن ذلك والحملة مستمرة من أتباع هذين الدينين ضد الاسلام . ولا تزال قائمة لاظهاره بمظهر الدين البشرى الملفق من ديانات وحضارات سابقة .

رأيا عاما شائعا فى السابق ولا يزال الآن أيضا قوى الانتشار . ولكن محمدا لم يكن يجعل هناك أبدا فارقا بين الأمور الدينية والأمور السياسية . فهو يريد الانسان كله . والارتباط السياسى هو النتيجة البديهية تماما للتحول الى الاسلام ، والرعاية السياسية لأتباعه تعد جانبا أساسيا لنبوته . وأيضا فان ضم الكعبة الى دائرة نظرته أو تأمله لا يعد مناورة سياسية ، بل يعد تطورا دينيا داخليا .

وفى مقال خاص نشر فى « مجلة الشرق الشهرية النمساوية » عرض جريمه مرة أخرى « أصول دين محمد » باختصار . فبجانب اليهودية والمسيحية كان هناك دين قائم فى الجنوب العربى هو « دين الرحمانان » بناء على شهادات النقوش السبئية . ويحاول جريمه أن يصف هذا الدين من واقع النقوش وصفا دقيقا وأن يبين صلته الوثيقة بدين محمد . ونتيجة لبحوثه يقرر جريمه أن الاسلام « لم يكن شيئا ولد فى رأس محمد ثمرة لتأمل أصيل دون أى تأثير من العالم المحيط به ، بل كان فى بداياته الأولى كما كان فى استمرار تطوره ـ طالما كان هذا التطور يحدث على أرض مكة ـ متشابكا تشابكا وثيقا مع « دين الرحمانان » الجنوبى العربى » .

وبصرف النظر عما اذا كان « دين الرحمانان » هذا لم يثبت اطلاقا انه كان دينا خاصا فانه يبدو أن جريمه هنا أيضا لم يقدر قيمة التأثيرات اليهودية والمسيحية الا فى أقل القليل . والأمر كله لا يعدو أن يكون فرضية طريفة! (٩٦) .

* * *

١٣ ـ بول (Buhl) :

فى حين يوجه جريمه أكبر الاهتمام لتصوير البيئة المحيطة بمحمد فان بول (٩٧) الذى لم يترجم ـ للأسف ـ كتابه الممتاز عن سيرة محمد الى

---

(٩٦) الأحرى أن يقال أنها فرضية باطلة تستهين بعقول الناس . فاذا كان دين الرحمانان هذا المزعوم لم يثبت اطلاقا ـ كما يقول بفانموللر نفسه ـ أنه كان دينا خاصا له كيان متميز فكيف يمكن أن ينتج عنه هذا الدين العالمى المتمثل فى الاسلام ؟

(٩٧) فرانتس بول (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢) مستشرق دانماركى ، كان أستاذا للعهد القديم وللغات السامية . له دراسات اسلامية عديدة أهمها =

الألمانية ـ يوجه اهتمامه الى موضوع التطور الدينى لمحمد . فقد جمع بعناية فائقة ـ وأنا أقرر هنا بكلمات (ك.هـ. بيكر) نظرا لأن الكتاب الأصلى لم يكن فى متناول يدى ـ جمع بين المراجع العربية والاوروبية، وناقش مشكلة بعد مشكلة بحرص وبغزارة فى الأسانيد جديرة بالتقدير . وبطبيعة الحال يقتفى فى الغالب أثر الثقات المعدودين ، ولكن نادرا ما يكون ذلك دون نقد وتمحيص .

ومما هو جدير بالاعتبار بصفة خاصة تحفظه ازاء فرضيات معينة من الفرضيات الحديثة الطريفة ، مثل تلك الفرضيات التى عرض علينا بعضها (فنكلر Winckler) (٩٨) بصفة خاصة فى ثوب مغر . وقد خصص كذلك قسما كبيرا من الكتاب للبيئة التى انحدر منها محمد ، اى للعالم العربى الوثنى . وفى حياة محمد ذاتها جرى بول تفرقة محمودة بين الأسطورة والتاريخ . وفى العرض الرائع المختصر لقضية المصادر الذى أورده بول فى نهاية الكتاب يجد المرء تعليلا للأسس التى راعاها بول فى كتابه .

أما بالنسبة لموضوع التطور الدينى ذاته فقد انتفع بول كثيرا بمقالة سنوك هورجرونيه (الاسلام De Islam) . وفى هذا الصدد نجد بول منصفا تماما لشخصية النبى . وهذا أمر يختلف تماما عن (موقف) جريمه الذى ظل النبى غريبا عنه داخليا .

وفى مقال لمجلة عالم الاسلام (The Moslem World) يقدم بول ـ على أساس كتابه الكبير عن سيرة محمد ـ عرضا مختصرا عن « أخلاق محمد بوصفه نبيا » يمتاز بدرجة كبيرة من الموضوعية .

وفى الكتاب التذكارى للاحتفاء بنولدكه يقدم لنا بول أخيرا « بعض اسهامات لنقد تاريخ محمد » وذلك فى قسمين :

١ ـ مقدمات معركة بدر . ٢ ـ الهجرة الى الحبشة .

* * *

كتابه عن « حياة محمد » الذى صدر فى كوبنهاجن عام ١٩٠٣ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الألمانية عام ١٩٣٠ ، ونظرا لأن بفانموللر قد ألف كتابه عام ١٩٢٣ فلم تكن الترجمة الألمانية قد ظهرت بعد الى حيز الوجود ، ومن هنا كان تعبيره عن الأسف لعدم ترجمة كتاب بول الى الألمانية .

(٩٨) فنكلر (١٨٦٣ـ ١٩١٣) مستشرق المانى .

١٤ ـ مرجليوث (Margoliouth) (٩٩) :

أما مرجليوث فانه فى كتابه « محمد ونهضة الاسلام » قد انتفع بسلسلة من المصادر الجديدة التى لم تكن قد استخدمت حتى ذلك الحين . وفى ذلك تكمن قوته كما يكمن ضعفه أيضا ـ كما يقول بيكر ـ . فالصورة نجدها حية جدا فى كثير من الحالات ، ولكن المؤلف يأخذ فى حالات كثيرة جدا الكساء المعهود للمذاهب المتأخرة على أنه تاريخ . كما ان المشكلة الدينية ، مثل التأسيس النفسى لعودة محمد الى طقوس العبادة المتعلقة بالكعبة ونزعته الابراهيمية ، تتراجع لدى مرجليوث بشكل ملفت للنظر ، فى حين أنه يتتبع بشغف ظاهرة الوحى لدى محمد ويقارنها بأقوال المذهب الروحى الحديث وبالمذهب المورمونى (Mormonism) (١٠٠) .

ويرى مرجليوث فى محمد دجالا ماكرا معدوم الضمير وسياسيا يخدع الآخرين بشعوذاته . وبذلك يسد مرجليوث على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره(١٠١) فالكتاب اذن له مزايا كبيرة ، ولكن أخطاءه كبيرة أيضا . والشىء الممتاز يتمثل فى تلك الصور العديدة (التى اشتمل عليها الكتاب) .

---

(٩٩) د . س . مرجليوث (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠) مستشرق انجليزى معروف ، كان أستاذا للعربية فى جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٨٩ ، له دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه والأدب العربى وأصوله . وقام بترجمة الكثير من النصوص العربية ، كما قام أيضا بتحقيق عدد من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : محمد ونهضة الاسلام (١٩٠٥) والاسلام (١٩١١) وانتشار الاسلام (١٩١٤) وجنوب الجزيرة العربية والاسلام ، وأصول الشعر العربى (١٩٢٥) . وهذا البحث الأخير هو الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى كتابه عن « الشعر الجاهلى » عام ١٩٢٦ .

(١٠٠) انظر الهامش الذى سيأتى فى نهاية هذا البحث عن هذا المذهب عند الحديث عن ماير (Meyer) .

(١٠١) لقد كان بفانموللر محقا فى تعليقه على كلمات مرجليوث المسفة بأنه بذلك قد سد على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره . فالعالم يجب أن يترفع عن مثل هذا الاسفاف ويرتفع الى مستوى المسئولية العلمية حتى يستطيع أن يرى الحقيقة كما هى دون زيف .

وقد كتب مرجيليوث أيضا مقالتين عن « محمد » احداهما فى دائرة المعارف البريطانية والأخرى فى دائرة معارف الدين والأخلاق . وتشتمل كلتا المقالتين أيضا على بيانات قيمة بالمراجع .

* * *

١٥ ـ جولدتسيهر (Goldziher) ومرحلة جديدة :

بدأت هناك مرحلة جديدة فى مجال البحث فى حياة محمد عن طريق بحوث جولدتسيهر حول « تطور الحديث » . وقد أثبت جولدتسيهر عن طريق عدد وفير من الأمثلة القاطعة أن « الحديث » ليس تاريخا وانما هو رواسب تعكس ميول شتى التيارات والتيارات المضادة فى حياة الاسلام(١٠٢) .

وأول من طبق هذه المعرفة بصورة حاسمة على حياة محمد كان (ليونى كيتانى Caetani) (١٠٣) صحيح أن انتاجه الضخم (انظر ص ٣٦ وما بعدها)(١٠٤) لا يتضمن سيرة لحياة محمد بالمعنى الدقيق ، بل يشتمل فقط على عمل تمهيدى لذلك عن طريق جمعه الواسع للمادة

---

(١٠٢) اجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠ ــ ١٩٢١) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، كان أستاذا فى جامعة بودابست . يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية فى أوروبا ، كتب العديد من البحوث عن الاسلام باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية وغيرها . وقد شكك فى الأحاديث النبوية واعتبرها فى جملتها تعكس تطور الاسلام الدينى والتاريخى والاجتماعى فى القرنين الأول والثانى . وقد تلقف كثير من المستشرقين من بعده هذا الزعم وبنوا عليه الكثير من النتائج . ولسنا هنا فى معرض مناقشة هذه الدعوى التى تفتقد الأساس العلمى السليم ، فقد سبق أن ناقشها وفندها وبين تهافتها عدد من علماء المسلمين . راجع فى ذلك على سبيل المثال : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى . أنظر أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ٩٩ وما بعدها .

(١٠٣) الأمير ليونى كيتانى (١٨٥٩ ــ ١٩٢٦) مستشرق ايطالى . له دراسات واسعة فى تاريخ الاسلام .

(١٠٤) يشير بفانموللر فى ص ٣٦ من كتابه الى كتاب كيتانى « حوليات الاسلام » فى تسع مجلدات ، وكتابه « دراسة لتاريخ الشرق » فى أربع مجلدات .

(العلمية) . وعلى أساس من هذا العمل التمهيدى تناول كيتانى العديد من الجزئيات المتعلقة بسيرة النبى بنقد أصيل وحاد ، وان كان فى بعض الأحيان أيضا يذهب فى النقد الى حد بعيد نسبيا . (قارن فى ذلك بوجه خاص النقد المفصل لتيودور نولدكه للمجلدين الأول والثانى فى « مجلة فبينا لمعارف الشرق » جزء ٢١ ص ٢٩٧ ـ ٣١٢) .

ولكن كيتانى كان ـ حسب قول نولدكه ـ منصفا تماما لنفسية محمد الفريدة . ويبين لنا كيتانى بصورة ممتازة ـ طالما كان ذلك ممكنا ـ كيف تحول الداعية المتحمس لله تحولا سريعا ، بمجرد أن استقرت أقدامه فى المدينة ، الى سيد دنيوى وسياسى عبقرى دون أن يحدث فى باطنه تصدع واع وحقيقى ، والأمر الهام أن محمدا أيضا فى شتى تنظيماته واعماله التى تجرح شعورنا الأخلاقى جرحا بالغا لم يفقد الوعى بأنه أداة الله . هذا الاله الذى هو نفسه لديه نقاط ضعف انسانى الى حد ما(١٠٥) .

* * *

١٦ ـ لامانس (Lammens) :

يتابع لامانس(١٠٦) كلا من جولدتسيهر وكيتانى . ونحن ندين بالفضل للامانس لتلك السلسلة الكبيرة من البحوث عن تاريخ محمد التى

---

(١٠٥) الاسلام دين ودنيا ، سياسة وأخلاق ، عقيدة وشريعة ، وهذا أمر لا يريد المستشرقون أن يفهموه . ثم ما هى تلك الأعمال التى صدرت من محمد وتجرح الشعور الأخلاقى لدى الأوروبيين جرحا بالغا ؟ وما هى نقاط الضعف الانسانى التى يريد أن ينسبها كيتانى الى الله عز وجل ؟ هذا كلام غريب لا سند له على الاطلاق من عقائد الاسلام وتشريعاته . فالاسلام جاء ليتمم الله به مكارم الأخلاق ، وتنزيه الله فى الاسلام عن صفات المخلوقين ومخالفته للحوادث من الأمور المشهورة التى لا تحتاج الى مزيد بيان .

(١٠٦) الأب لامانس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) بلجيكى المولد فرنسى الجنسية انضم الى سلك الرهبنة عام ١٨٧٨ كان استاذا للعربية فى جامعة القديس يوسف فى بيروت التى تخرج فيها وتنقل شرقا وغربا ثم استقر فى بيروت وتوفى بها . وله دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه وقد أشار نجيب العقيقى الى عناوين بحوث لامانس فى ثلاث صفحات كاملة . وكتابات لامانس تتسم بالتعصب ضد الاسلام . وهذا أمر ليس غريبا على راهب يحاول أن يدافع عن دينه على حساب الاسلام .

تمتاز جميعها بحدة ذكاء رائعة واطلاع عظيم . ولكنها فى تشككها ازاء المصادر غالبا ما تذهب فى ذلك الى حد بعيد أكثر من اللازم .

وقد ناقش كل من نولدكه وبيكر(١٠٧) فى مقالات مطولة نتائج بحوث لامانس . وكان نولدكه ـ فى نقده المشار اليه لكتاب كيتانى ـ قد عارض التشكك المجاوز للحد من جانب لامانس . وتناول نولدكه فى مقالة خاصة بعنوان « الحديث وصلته بحياة محمد » (مجلة الاسلام ٥ ، ١٩١٤ ، ص ١٦٠ ـ ١٧٠) تناول أقوال لامانس بالتفصيل بنقد بالغ العمق . ويذهب نولدكه أيضا الى القول بأن التطور الداخلى لمحمد ، والذى أدى الى النبوة ، يظل بالنسبة لنا من الأمور الغامضة حقا ، كما أننا لا نعرف الا القليل عن فترة نبوة محمد المكية . ولكن الأحاديث تقدم لنا أيضا بعض الأمور اليقينية عن هذه الفترة . وبانتقال محمد الى يثرب نطأ أرضا تاريخية واضحة :

« وعلى الجملة فاننى اذا اردت أن الخص وجهة نظرى فاننى يجب أن اعبر تعبيرا حاسما ضد الرأى القائل بأن السيرة (أى الوصف العربى لحياة محمد) لم تكن الا مجرد ذيل أو ملحق لتفسير القرآن . انها كثيرا ما ترتبط بذلك برباط وثيق ، ولكنها مع ذلك مستقلة فى جملتها » .

وفى المجلد نفسه من مجلة « الاسلام » (ص ٢٠٥ ـ ٢١٢) يقدم نولدكه حديثا مفصلا ونقدا لكتاب لامانس الرئيسى « مهد الاسلام » الذى سنتحدث عنه بعد قليل بشىء من التفصيل .

وفى المجلد الخامس عشر من مجلة « ارشيف لعلم الأديان » قدم بيكر فى تقريره عن المراجع حول الاسلام بيانا مختصرا بمضمون البحوث المختلفة التى قام بها لامانس . وفى مقال خاص بعنوان « أمور مبدئية لدراسة لامانس للسيرة » فى المجلد الرابع من مجلة « الاسلام » ناقش بيكر مرة أخرى مناقشة مبدئية آراء لامانس حول مصادر تاريخ حياة محمد .

---

(١٠٧) لقد سبق الحديث عن نولدكه فى هامش سابق . أما كارل هينريش بيكر (Becker) (١٨٦٧ ـ ١٩٣٣) فهو مستشرق ألمانى ، كان أستاذا فى هامبورج وبون ، له دراسات عديدة فى التاريخ الاسلامى . وقد أنشأ مجلة « الاسلام » الألمانية (Der Islam) عام ١٩١٠ .

وقد أبدى (شفالى Schwally) (١٠٨) فى مواضع مختلفة من تنقيحه لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » (المجلد الأول ص ١٠١ وما بعدها ، والمجلد الثانى ص ٢٠ وما بعدها ، ص ٨٤ ، وبصفة خاصة ص ١٩٦ ـ ١٩٨ ، ٢١٤ وما بعدها) ـ أبدى رأيه فى أهم مواقف لامانس .

وعلى أساس من هذه الانتقادات نعرض للحديث باختصار عن أعمال لامانس الرئيسية .

فدراسة لامانس التى عنوانها « مكة بوصفها مركزا تجاريا حوالى عام ٦٠٠ ميلادية » يقف فيها بصورة رائعة وعناية دقيقة على ظروف مكة الاقتصادية والسياسية عند ظهور النبى .

أما مقالته « القرآن والحديث . كيف تمت كتابة سيرة محمد » فانها تقدم أفضل نظرة توضح كيف يتصور لامانس نشأة شكل السيرة . وفى هذه المقالة يرى لامانس أن سيرة حياة محمد لا تقوم ـ كما يظن المرء غالبا ـ على مصدرين مستقلين هما تفسير القرآن والحديث النبوى ، بل ان المادة الحديثية كلها المتعلقة بحياة محمد وظهوره ليست شيئا آخر غير مادة تفسيرية مخترعة بشكل حر للاشارات القرآنية . فالمصدر الوحيد اذن لحياة محمد ـ وليس لتعاليمه ـ هو القرآن . وهذه الدعوى يعرضها لامانس بكثير جدا من الذكاء الحاد عن طريق الأمثلة الكثيرة .

ويرتبط بهذه المقالة ارتباطا وثيقا عمل آخر يتمثل فى بحثه عن « عصر محمد والترتيب الزمنى للسيرة » . وهنا يبين لامانس اضطراب وضعف بيانات الترتيب الزمنى التى تبدو كأنها بيانات دقيقة والتى تشتمل عليها الأحاديث (النبوية) الاسلامية عن حياة محمد . ويجب أن ننظر الى هذه البيانات على أنها محاولة أجريت بوسائل غير كافية تماما من جانب علماء الخلف المقلدين الذين كانوا مهتمين بمسائل الترتيب الزمنى وقاموا بادماج الأحاديث الشفوية ـ التى تفتقد أصلا التحديد الزمنى الدقيق ـ فى قالب تاريخى . ولا يريد لامانس أن ينكر احتمال أن تكون

---

(١٠٨) فريدريش شفالى (١٨٦٣ ـ ١٩١٩) مستشرق ألمانى نشر كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى عام ١٩٠٢ واشترك فى نشر الطبقات لابن سعد . وله دراسات فى القرآن والجغرافيين العرب وجغرافية مصر .

هناك على الأقل بعض بيانات جديرة بالتصديق فى هذا الترتيب الزمنى الذى هو فيما عدا ذلك مصنوع تماما(١٠٩) .

والكشف عنها (أى عن البيانات الصحيحة) هو مهمة بحث نقدى خاص . ويريد لامانس أن يخفض مدة حياة محمد وعمره عند الأحداث الحاسمة عقدا من الزمان على الأقل ـ على عكس ما تقول به الأحاديث (١١٠) .

ويهتم لامانس أيضا بالسؤال القديم : « هل كان محمد مخلصا » ؟ . ويعتقد لامانس ـ بناء على تحليل نفسى دقيق ـ أنه يتحتم الاجابة بالنفى على هذا السؤال(١١١) .

ويعبر لامانس فى بحثه « حكومة الثلاثة : أبى بكر وعمر وأبى عبيدة » عن الافتراض بأن هؤلاء الرجال الثلاثة قد جمعوا شملهم قبل وفاة النبى ثم بعد وفاته على وجه اليقين لكى يمنعوا سقوط الدولة ، وانهم اذن لم يكونوا متحمسين دينيين أيضا ، بل كانوا ساسة حصفاء(١١٢) .

---

(١٠٩) هدف الأب لامانس هو التشكيك والذهاب فى ذلك الى أبعد مدى . وقد لاحظ ذلك أيضا بعض المستشرقين المعتدلين نسبيا ورفضوا وجهات نظره المجاوزة للحد كما هو واضح من مناقشات كل من نولدكه وبيكر وشفالى وملاحظات بفانموللر أيضا .

(١١٠) هذه نظرية غريبة لم يقل بها ـ فيما نعلم ـ أحد من المستشرقين ولا من غيرهم من قبل . ولعلها محاولة من جانب لامانس ليبنى عليها ما يريد أن يستنتجه من المزيد من التشكيك .

(١١١) لامانس حر فى أن يعتقد ما يشاء ، ولكنه ليس حرا حينئذ فى أن يحدثنا عما يعتقد باسم العلم فالعلم برىء من مثل هذه الأراجيف الباطلة . فحياة محمد صلى الله عليه وسلم ناصعة البياض فى كل جوانبها من بدايتها الى نهايتها . ولكنه منطق التعصب الذميم يعمى القلوب والأبصار عن رؤية الحقيقة .

(١١٢) عبثا يحاول المرء افهام المستشرقين بأنه لا انفصالية بين الدين والسياسة فى الاسلام ، فهناك اصرار على فرض مفهومهم للدين على الاسلام . ونحن من جانبنا لا نقبل هذا المفهوم لأنه مفهوم قاصر لا يأخذ فى اعتباره الا الجانب الروحى فقط من الانسان . والاسلام بتعاليمه جاء ليقيم التوازن بين كل جوانب الانسان الروحية والعقلية والجسمية . فمتى يدركون ذلك ؟

وقد تناول بيكر بالتفصيل دراسة مطولة أخرى للامانس حول موضوع « فاطمة وبنات محمد ، ملاحظات نقدية لدراسة السيرة » (مجلة الاسلام ، ٤ ، ١٩١٣ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٩) ٠

ويعترف بيكر عن طيب خاطر بالخدمات الكبرى للامانس فى مجال البحث النقدى لحياة محمد ويوافقه فى الحكم على التصوير الاسلامى لسيرة النبى ، فهذه السيرة ليست مصدرا تاريخيا مستقلا ، بل هى مأخوذة فى وقت متأخر من تفسير القرآن ومن الأحاديث المختلفة التى أتت نتيجة للميول العقدية والفقهية ، ونسقت تنسيقا بيوجرافيا ، فالسيرة اذن انتاج متأخر ٠

ولكن بيكر يؤكد ـ معدلا من حكم لامانس ـ أن هناك فى السيرة بجانب الكم الكبير من القصص المغرضة أخبارا عديدة لم يثبت أنها مغرضة ، وتسمح يقينا باعادة بناء صورة تاريخية ٠ ويتهم بيكر لامانس أنه بصفة خاصة لم يكن فى نقده منطقيا مع نفسه بقدر كاف ، بل كان يسلم بالصورة السيئة للمأثورات المغرضة الموجهة ضد على دون فحص ويأخذها على أنها صورة تاريخية لدرجة تجعل تصويره يسقط فى عشوائية تامة ٠

وبعد كل هذه الدراسات التمهيدية قام لامانس فى كتابه الرئيسى « مهد الاسلام » ببيان الصورة التاريخية لنشأة الاسلام من المصادر وبتفصيل القول فى مجال هذه الصورة كله ٠ واقتناعا منه بأهمية معرفة البيئة يخصص لامانس المجلدين الأولين ـ اللذين لم يظهر منهما حتى الآن الا المجلد الأول فقط ـ لوصف أماكن مولد الاسلام ، ووصف بلاد العرب الغربية وسكانها٠ وعلى أساس من الاطلاع الواسع الذى يحسد عليه فى كل أنواع المراجع العربية القديمة ، التى سجل معلوماتها فى آلاف الهوامش ، استطاع لامانس أن يصف الأرض والناس فى الحجاز فى عصر ظهور النبى وصفا حيا الى أقصى حد ٠

ويضع لامانس بين القسمين الرئيسيين للكتاب ـ حيث يصف أولهما الظروف الاقتصادية والطبيعية للبلاد ، ويصف ثانيهما حالة أوضاع حياة القبائل البدوية (أما السكان القاطنون المستقرون فانه يصفهم فى المجلد الثانى) ـ يضع مناقشة جديرة جدا بالتقدير للدعوى الجديدة التى تذهب الى القول بأن الطقس قد تغير فى بلاد العرب تغيرا أساسيا فى زمن تاريخى ٠ فالتحول المستمر للبلاد الى صحراء غير مأهولة

بالسكان كان الدافع الحقيقى للفيضانات البشرية الكبيرة من جانب سكان « مجلس الشعوب » العربية الى بلاد الحضارة المجاورة ، وبصفة خاصة أيضا كان الدافع الحقيقى للفتوحات الاسلامية . (قارن 'يونى كيتانى ص ٣٧)(١١٣) .

ويعد لامانس خصما لدودا لهذه النظرية ، ويواجهها بصفة خاصة بحقيقة مؤداها أن تاريخ اقتصاد الحجاز يدل على أنه كان هناك مستوى عال لحضارة البلاد فى القرون السابقة مباشرة لظهور محمد ، ويدل على كل شىء آخر غير الاقفار العام والفقر الذى يمكن أن يدفع الى توسع عنيف.

ويمكن القول على وجه الاجمال بأن لامانس بمؤلفاته كلها قد جمع مادة (علمية) عظيمة لتاريخ حياة محمد ، تقدم لكل باحث - مع استخدام النقد الضرورى - اشارات ثرية .

أما أحدث تصوير انجليزى لحياة محمد من جانب كل من (كانون سل Canon Sell) و (درايكوت G. M. Draycott) فلم يكن فى متناول يدى . واستنادا الى ما يقوله (ت . ف . أرنولد Arnold) (١١٤) فان درايكوت لم يعتمد على المصادر ، ولم يعرف لا دين النبى نفسه ولا المؤلفات الأساسية عن الاسلام . (قارن : مجلة تاريخ الأديان ٨٠ ، ١٩١٩ ص ٢٨٣) .

* * *

---

(١١٣) يشير بفانموللر فى ص ٣٧ الى تبنى كيتانى للنظرية القائلة بأن الجفاف المتزايد فى بلاد العرب هو الذى دفع المسلمين الى الفتوحات الاسلامية واضطر السكان الى الهجرة.

(١١٤) لم نعثر فيما بين أيدينا من مراجع على ترجمة لحياة كل من سل ودرايكوت . أما السير توماس أرنولد (١٨٦٤ — ١٩٣٠) فهو مستشرق انجليزى كان أستاذا فى جامعة عليكره ولاهور بالهند ثم أصبح أستاذا للعربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى لندن . له دراسات اسلامية عديدة . وأهم مؤلفاته كتاب « الدعوة الى الاسلام » الذى ترجم الى العربية والتركية والأوردية .

خامسا : كتابات شعبية عن حياة محمد

١ ـ ريكندورف (Reckendorf) :

من بين المؤلفات الشعبية العديدة عن حياة محمد نذكر فقط كتاب « محمد وأصحابه » من تأليف ريكندورف(١١٥) ، وكتاب « حضارة العرب » من تأليف يوسف هيل . وقد ظهر كلاهما فى مجموعة « العلم والثقافة » .

وريكندورف وان كان لم يقدم ترجمة حقيقية لسيرة محمد الا أنه قد نجح بصورة رائعة فى توضيح الأسس الاجتماعية والحضارية والاقتصادية والسياسية والذاتية للاسلام فى بداياته بشكل مترابط .

ويتناول ريكندورف فى فصول أربعة (الموضوعات التالية) :

١ ـ قوة تأثير أعمال محمد ونشاطاته .

٢ ـ حروب محمد .

٣ ـ أصحاب محمد .

٤ ـ رئيس الدولة والرعية .

وفى فصل خامس يقدم لنا نظرة على تطور الأحداث بعد وفاة محمد . ويعقب ذلك ملحق يشتمل على ذكر أهم المراجع . ويستند عرض الموضوعات على القرآن بصفة خاصة ، ولكنه يعطى أحيانا ـ رغم كل النقد ـ ثقة أكثر من اللازم للحديث . ومن بين الأخطاء التى يبرزها سنوك هورجرونيه بصفة خاصة فى نقده المفصل (المنشور فى جريدة الأدب الألمانى ١٩٠٧ عمود ١٣٠٩ ـ ١٣١١) بعض الأخطاء التى تتعلق بقصور المعرفة للقوانين العربية للأسرة .

* * *

(١١٥) هـ . ريكندورف (١٨٦٣ ـ ١٩٢٤) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للعربية فى فرايبورج . وقد صدر كتابه المشار اليه فى ليبتزج عام ١٩٠٧ .

OBEIKAN.COM

٢ـ هيـــل (Hell) :

ويقدم هيل أيضا فى الفصل الثانى من كتابه « حضارة العرب » صورة حية لحياة النبى وتعاليمه(١١٦) .

* * *

٣ ـ كامبفماير (Kampffmeyer) :

فى أربع مقالات ـ تدل على خبرة علمية ـ كتبها كامبفماير(١١٧) لمجلة « العالم المسيحى » يصف القرآن باعتباره مصدر حياة محمد ، ويصف أحوال بلاد العرب قبل الاسلام ، ويعرض تعاليم محمد . (عقيـدة البعث والحساب ووحدة الله والقضاء والقدر ومفهوم الوحى وتعاليم الأخلاق القرآنية) . ويختتم مقالاته بنظرة على تطور الاسلام بعد ذلك .

* * *

٤ ـ ريـم (Rehm) ، وفورتس (Würz) :

أما تصوير ريم لمحمد ولعالم الاسلام فى سلسلة مكتبة ريكلام العالمية فقد جاء شعبيا أكثر من اللازم ،ولم يكن منصفا للحضارة العقلية للاسلام(١١٨) .

وفى «مجلة التبشير الانجيلى » (مجلد ٦٦ ، ١٩٢٢ ، ص ٢٧٢ وما بعدها) ألقى « ف.فورتس » نظرة سريعة على « محمد وأعماله » .

* * *

٥ ـ مايـــر (Meyer) :

وفى النهاية نشير أخيرا الى تلك المحاولة الهامة التى قام بها ادوارد

---

(١١٦) يوسف هيل (١٨٧٥ ـــ ١٩٥٠) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا بجامعة ارلانجن بألمانيا وله اهتمام خاص بالشعر العربى . وقد ظهـر كتابه « حضارة العرب » فى ليبتزج عام ١٩٠٩ثم أعيد طبعه عام ١٩١٩ . وقد ترجمه الى الانجليزية خودابخش عام ١٩٢٥ .

(١١٧) ج . كامبفماير (١٨٦٤ ـــ ١٩٣٦) مستشرق ألمانى ، كان أستاذا للعربية فى ماربورج ورأس تحرير مجلة « عالم الاسلام » ، له دراسات فى الأدب العربى المعاصر .

(١١٨) ظهر كتاب ريم بالألمانية عـام ١٩١٥ فى ليبتزج بعنوان : « محمد وعالم الاسلام » .

ماير(١١٩) فى استخلاص أوجه الشبه بين ظهور محمد ومؤسس طائفة المورمون جوزيف سميث(١٢٠) .

ويربط ماير أقدم سورتين ـ طبقا لما ورد بشأنهما فى الأحاديث وهما السورة رقم ٧٤ والسورة رقم ٩٦ ـ يربطهما بالرؤى الروحية التى شهد بها النبى نفسه ، (مرة) وقت شعوره باصطفائه على جبل حراء ، (ومرة أخرى) عند « شجرة سدرة المنتهى » . ويفسر ماير شجرة سدرة المنتهى ـ متفقا فى ذلك مع اشبرنجر ـ بمكان معين لدى مكة ضاعت معالمه بعد ذلك(١٢١) .

ويؤيد ماير الفهم القائل بأن كلمة « اقرأ » فى بداية السورة رقم ٩٦ يجب أن تفهم بمعناها الحقيقى وأنها تنسحب على الوحى .

وبصرف النظر عن أن ماير قد ترجم الكلمة العربية « اقرأ » ترجمة خاطئة بمعنى (Lesen) (أى بالمعنى المعهود الذى تدل عليه الكلمة

---

(١١٩) ادوارد ماير (١٨٥٥ ـ ١٩٣٠) مستشرق ألمانى . وقد صدر كتابه عن « أصل المورمون وتاريخهم مع نظرة حول بدايات الاسلام والمسيحية » فى هاله بألمانيا عام ١٩١٢ .

(١٢٠) المورمون طائفة مسيحية ، اسسها فى الولايات المتحدة عام ١٨٣٠ جوزيف سميث (١٨٠٥ ـ ١٨٤٤) وادعى أنه يوحى اليه . وقد أسس المورمون عام ١٨٤٨ مدينة المورمون انتظاراً لعودة المسيح . والسؤال الآن هو : أى أوجه شبه يريد أن يستخلصها ماير من مقارنته بين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤسس هذه البدعة الجديدة جوزيف سميث ؟ ان هذا ضرب من العبث واستهانة بعقلية القارىء الذى لا تخفى عليه أهداف هذا العبث الذى ليس له مبرر دينى أو أخلاقى .

(١٢١) وردت «سدرة المنتهى» فى سورة النجم فى قوله تعالى : **«ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى»**(النجم:١٣ـ١٥) والسدرة معناها شجرة . أما **أنها** سدرة **المنتهى** أى التى ينتهى اليها المطاف **فجنة المأوى عندها ، أو التى انتهت** اليها رحلة المعراج **أو التى انتهت اليها** صحبة **جبريل لرسول الله** صلى الله عليه وسلم . أما **أنها** شجرة **كانت** فى مكان معين لدى **مكة ضاعت معالمه بعد ذلك** ، فهذا أمر لا يمكن فهمه **من** سياق الآيات **على** الاطلاق . **وليس له ما يبرره** الا محاولة فهم **الاسلام بأنه** مقطوع **الصلة** بالسماء .

OBEIKAN.COM

وهـو القـراءة) ، فـى حـين أن المعنـى المقصـود هـو « يتلو » (rezitieren) (١٢٢)ـ بصرف النظر عن ذلك فان مقارنته مفيدةومثيرة للاهتمام ، وان كان أيضا يجاوز الحد فى بعض الأحيان ٠

(قارن النقد المفصل الذى كتبه (يوهانز بيدرسين Pedersen) فى مجلة « الاسلام » ٥ ، ١٩١٤ ص ١١٠ ـ ١١٥) ٠

* * *

(١٢٢)كلمة « اقرأ» فى قوله تعالى : **« اقرأ باسم ربك الذى خلق »** (العلق : ١) تعنى القراءة لا التلاوة . ويؤيد ذلك ما ورد فى حديث بدء الوحى الذى رواه الامام أحمد والشيخان عن عائشة وفيه : « فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء » . فرده عليه الصلاة والسلام بقوله : « ما أنا بقارىء » يدل على أن المراد هو القراءة بمعناها المعهود .

OBEIKAN.COM